فواصل الآيات القرآنية

د/كمال الدين عبد الغنى المرسى

كلية التربية - جامعة الاسكندرية

نشر وتوزيع

المكتب الجامعى الحديث

٤٥ ش ديتوقراط - الأزاريطة - إسكندرية

تليفاكس ٤٨٤٣٨٧٩



(الطبعة الأولى)

١٤٢٠ - ١٩٩٩

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

فواصل الآيات القرآنية

د/ كمال الدين عبد الغنى المرسى
كلية التربية - جامعة الاسكندرية

(الطبعة الأولى)
١٤٢٠ - ١٩٩٩

المكتب الجامعى الحديث
١٤ ش دينوقراط - الأزاريطة - اسكندرية
تليفاكس : ٤٨٤٣٨٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ﴾

ثم الصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد ،

فإن من أجلّ أنواع علوم القرآن التى تستحق منا الدراسة والبحث ذلك النوع الذى يتعلق بالفواصل القرآنية وقد ذكره الإمام السيوطى (ت ٩١١) فى كتاب « الإتقان فى علوم القرآن» ، فى النوع التاسع والخمسين تحت عنوان (فى فواصل الآى) تناول فيه الكلام عن أقوال العلماء فى هذا الشأن فى إيجاز لايشبع نهم الباحثين ، ولذلك رأينا أن نفرد بالتصنيف فى موضوعه هذا البحث لأجل أن نقدمه للناس فى صورة مبسوطة ، خصوصا أن الدراسات الحديثة لم تقف عند هذا الموضوع طويلا ، وإنما هى إشارات سريعة فى سطور قليلة لاتشبع رغبة الباحث المتتبع لظاهرة الفواصل .

وتحقيقا للوصول إلى الفائدة من أوجز سبيل ، عمد البحث إلى التقليل من نقل النصوص التى يتم الاستشهاد بها ، بعدا عن الحشو والإسهاب ، فجاءت الدراسة محددة فى أربعة فصول بيانها كما يلى:

الفصل الأول بعنوان: « بين الفواصل والقوافي والأسجاع»، تم فيه التعريف بالفاصلة وإبراز الفرق بينها وبين القافية والسجعة ، وتبين أنه لايجوز تسمية الفاصلة قافية إجماعاً لأن الله عز وجل لما سلب عن القرآن صفة الشعر وجب سلب القافية عنه أيضا لأنها منه، فأما مناسبة الفواصل فلقوله تعالى : ﴿ **كتاب فُصلت آياته** ﴾ (فصلت٣) .

ولما كان القرآن منزّها عن مقالة الشعر فقد تشابهت فواصل الآيات مع السجع ، ونجم خلاف بين العلماء من حيث جواز إطلاقه على ما فى القرآن من فواصل وعدم جواز ذلك وصارت قضية .

وبعد المقارنة بين كلام الفريقين من العلماء : فريق المنكرين وفريق المجيزين تم حسم الخلاف بجواز إطلاق السجع على الفواصل، لاسيما أن القرآن نزل على أساليب الفصيح من كلام العرب ، والسجع نمط من أنماط النثر الفنى عندهم ، ولأنه لم يرد نص شرعى صريح يمنع من تسمية الفواصل بالأسجاع ، فالقول بالسجع فى القرآن تقرير للفاصلة ، والقول بالفاصلة ليس انكارا للسجع فى حقيقة الأمر .

أما الفصل الثانى فجاء بعنوان : «الإعجاز البلاغى للفواصل القرآنية » ، وفيه تم التركيز على إظهار بلاغة الفواصل القرآنية ومناسبتها لآياتها حتى ظهر التناسب الرائع بينها وبين الألفاظ والسياق، وحتى عد ذلك من ضروب الإعجاز البلاغى فى القرآن ، ولأجل أن نوضح هذا المعنى كشفنا عن بعض أسرار

هذا التناسب تحت عناوين تُفصّله وهى : المزاوجة بين الفواصل ، وتناسب الفاصلة ، والتمهيد للفواصل بألفاظ تمهد لوقوعها ، وتكرير الفواصل فى بعض السور ، والربط الفنى فى الفواصل ثم رعاية الفواصل ، وأخيراً تحقيق التناغم بين الفواصل بحسب الإيقاع الملائم .

أما الفصل الثالث وهو بعنوان : « الدرس البلاغى للفواصل القرآنية » ، فقد عالج الدرس البلاغى لهذه الفواصل ، ومراده تبيين المنهج العلمى فى دراسة هذه الظاهرة باعتبارها وجها من وجوه الإعجاز ، وكيف نتناولها عند إرادة التدريس ، وتحقيقا لهذا الغرض تم تقسيم الدرس إلى ثلاثة مستويات :

المستوى الأول : وهو الدرس اللغوى الذى يعالج المناسبة النحوية والصرفية والشكل الإملائى .

والمستوى الثانى : وهو الدرس الدلالى الذى يعالج دلالة الفاصلة فى السياق .

ثم المستوى الثالث : وهو الدرس البديعى : باعتبار أن تقسيم الفواصل من حيث الحلية اللفظية فى علاقاتها الأربع وهى التمكين والتصدير والتوشيح والإيغال وجميعها تندرج فى قسم البديع ، لاتأتى لمجرد تحسين الكلام بل إنّ هناك اعتباراً للمعنى يجب ألاّ نغفله فى هذا التقسيم .

وقد ضم هذا الفصل أقوال كثير من علماء البلاغة والباحثين فى مضمارها مع ذكر العديد من الأمثلة التى تصلح للدرس ، ومناقشة بعض الآراء لدى أصحابها .

وأخيرا يأتى الفصل الرابع ختام المسك في هذا البحث وهو بعنوان : «معارضة الفواصل والقول بالصرفة» ، تم فيه الكلام عن تحدى القرآن للعرب أن يأتوا بمثله ، وبيان الفشل الذريع فى معارضته وذكر أسماء من اشتهروا بمعارضة القرآن فى فواصله الممتنعة ، ثم طرح قضية القول بالصرفة ودحض هذه الشبهة التى تقول بأن العرب كان فى مقدورهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولكن الله صرف قلوبهم عن ذلك ، ثم بيان أن القرآن معجزة خالدة أبد الدهر ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وفى نهاية البحث تأتى الخاتمة لتعرض أهم النتائج التى توصل إليها البحث ، تليها قائمة المصادر والمراجع التى تهيأ لى الإستعانة بها والإفادة منها .

ولست أدعى أنى فى ذلك بلغت مالم يَبلغْه غيرى ، أو أننى لم أدع زيادةً لمستزيد ، والكمال وحده لله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

والله الموفق ،،،

تحريرا فى الأول من رمضان ١٤١٩هـ

الموافق ٢٠ ديسمبر ١٩٩٨م — الباحث

الفصل الأول

بين الفواصل والقوافى والأسجاع

وفيـــــه :

- تعريف الفاصلة .
- بين الفاصلة والقافية والسجعة .
- سجع الكهّان
- هل يجوز إطلاق السجع على الفواصل ؟
- السجع نمط من أنماط النثر الفنى عند العرب .
- حســم الخــلاف بين العلمــاء فى وصف الفــواصل بالأسجاع .

«« بين الفاصلة والقافية والسجعة »»

تعريف الفاصلة :

ما الفاصلة ؟ ... الفاصلة هى آخر كلمة فى الآية كقافية الشعر وقرينة السجع [1] .

وفرّق الإمام أبو عمرو الدانى [2] بين الفواصل ورءوس الآى ، فقال: أما الفاصلة فهى الكلام المنفصل عما بعده ، والكلام المنفصل قد يكون رأسَ آى وغيرها وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأسَ آية فالفاصلة تعم النوعين ، وتجمع الضربين .

وتقع الفاصلة عند الاستراحة فى الخطاب لتحسين الكلام بها، وهى الطريقة التى يباين القرآن بها سائر الكلام ، وتسمى فواصل ، لأنه ينفصل عندها الكلامان ، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها ولم يسموها أسجاعا .

فأما مناسبة فواصل ، فلقوله تعالى : « **كتاب فصلت آياته** ». سورة فصّلت « ٣ ».

« ومنذ بدأ عصر التأليف فى الدراسات القرآنية والبلاغية ، أخذت قضية الفواصل موضعها من عناية الأجيال الأولى من علماء العربية وإن

---

١ - السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ج٣ ص ٣٣٢ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بتحقيق «محمد أبو الفضل إبراهيم» ، سنة ١٩٧٤ .

٢ - هو الإمام عثمان بن سعيد أبو عمرو الدانى أحد أئمة القراءات ، وصاحب كتاب التيسير، والمقنع، والاكتفاء، وغيرها من الكتب التى تتعلق بالقراءات توفى سنة ٤٤٤ هـ .

لم تنتقل بمباحث مفردة بل جاءت عارضة فى ثنايا المصنفات القرآنية المبكرة : (١)

« فأبو عبيدة ، معمر بن المثنى البصرى (٣١٠ هـ) يقف بين حين وآخر فى كتابه (مجاز القرآن) عند الفاصلة إذا لحظ فيها عدولا عن مألوف الاستعمال اللغوى ، موجها همه إلى الاحتجاج لهذا العدول بأن « العرب تفعل ذلك فى كلامها » وهى العبارة التى تلقانا كثيراً فى كتاب مجاز القرآن .

كذلك لم يعرض « الفراء أبو زكريا الكوفى » (٢٠٧ هـ) لمسألة الفواصل عرضاً مباشراً فى كتابه (معانى القرآن) ولكنه فى توجيه الآيات ، وترجيحه بين القراءات ، يصرح بأن القرآن يراعى الفاصلة : فيقدم أو يؤخر أو يحذف ، ويؤثر لفظاً على آخر فى معناه، أو يعدل عن صيغة للكلمة إلى صيغة أخرى ، رعاية « لمشاكلة المقاطع ورءوس الآيات، وكأنه نزل على ما يستحب العرب من موافقة المقاطع » . (٢)

وعلى كثرة ما عرض « الفراء » للفواصل القرآنية وبخاصة فى السور المكية، لم يذكرها باسم الفواصل وإنما هى عنده رءوس آيات. وقد تحاشى القول « بالسجع» فيها، وإن ثبت على مذهبه فى أن النظم القرآنى يرعاها قصداً إلى الجرس الصوتى ومشاكلة المقاطع .

وحتى القرن الثالث للهجرة، كان التحرج واضحاً من القول بالسجع فى القرآن ، وكأنما كان الحس المؤمن ينبو عن هذه الكلمة، لكثرة ما

---

١ – د / عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البيانى للقرآن ، ص ٢٥٣ طبعة دار المعارف – القاهرة .

٢ – اقرأ من ذلك مثلا ، توجيه الفراء لفواصل آيات : المرسلات ٣٢ ، الفجر ٤ ، الإنسان ١٨ ، الغاشية ١١ ، الضحى ٣ . فى (معانى القرآن) ط دار الكتب ١٩٥٥ ط القاهرة .

أطلقت عن قديم على سجع الكهان » .(1)

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن الخليل بن أحمد الفراهيدى (ت١٧٠)هو أول من استعمل مصطلح الفواصل فى أواخر آيات القرآن الكريم ، وأن أبا الحسن الأشعرى هو أول من نزه القرآن الكريم عن السجع (2).

« والقرآن ليس نثراً ، كما أنه ليس شعرا ، إنما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم ، ليس شعرا، وهذا واضح ، فهو لم يتقيد بقيود الشعر. وليس نثرا، لأنه مقيد بقيود خاصة لاتوجد فى غيره. وهى هذه القيود التى يتصل بعضها بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة. فهو ليس شعرا ولا نثرا، (3) ولكنه (**كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**) هود ١ .

تعريف القافية :

علمنا أن الفاصلة هى آخر كلمة فى الآية وتجمع على فواصل وهى حروف متشاكلة فى المقاطع كما فى قوله تعالى ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان ما لها** ﴾ فالكلمات زلزالها – أثقالها – مالها – فواصل للآيات وهى أيضا رؤوس الآيات . ونلاحظ أنها اشتركت جميعا فى اتفاق الحروف الأخيرة منها

---

١ – انظر د/ عائشة عبد الرحمن ، الاعجاز البيانى للقرآن ومسائل بن الأزرق ، دراسة قرآنية لغوية وبيانية ص ٣٥٤ – طبعة دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٨٧ .

٢ – محمد رجاء حنفى عبد المتجلى ، مقال بعنوان (الفواصل أحد مظاهر الاعجاز فى القرآن الكريم ، مجلة الوعى الإسلامى ، العدد ٣٨٨ (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م) ص ٤٤ .

٣ – طه حسين ا من حديث الشعر والنثر، ص ٢٥، طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٥ .

فى اللام والهاء والألف الممدودة .

وفاصلة الآية كقرينة السجعة فى النثر ، وقافية البيت فى الشعر [1]. وإنما سميت الفاصلة لأن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها ، ولايجوز تسمية رءوس الآيات قوافى إجماعا [2].

أما القافية فى الشعر فهى الحروف التى تبدأ بمتحرك قبل أول ساكنين فى آخر البيت الشعرى ، ومن ثم تكون القافية كلمة كما فى قول الشاعر :

ففاضت دموع العين منى صبابةً
على النحر حتى بل دمعى محملى

فالقافية هى (محملى) وهى كلمة .

وقد تكون القافية بعض كلمة كما فى قول الشاعر :

ياهلالا قد تجلى
فى ثياب من حرير

فالقافية هى (رير) وهى بعض كلمة .

وقد تكون القافية كلمة وبعضٍ كلمة كما فى قول الشاعر:

لو كنت أملك طرفى ما نظرت به
من بعد فرقتكم يوماً إلى أحدِ

فالقافية هى (لى أحد)وهى كلمة وبعض أخرى .

---

١ - السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ج ٣ / ٣٣٣ .
٢ - السيوطى ، الاتقان فى علوم القران ج ٣ / ٣٣٤ .

وقد تكون القافية كلمتين كما فى قول الشاعر :

أبشر بخير عاجلٍ تنسى به ما قد مضى

فالقافية هى (قد مضى) وهى كلمتان [1].

وما يذكر من عيوب القافية من اختلاف الحذو والإشباع والتوجيه فليس بعيب فى الفاصلة أو السجعة ، حيث لاينطبق عليهما ما ينطبق على القافية فى الشعر [2].

كما لايجوز تسمية الفاصلة قافية إجماعاً ، لأن الله تعالى لما سلب عن القرآن اسم الشعر، وجب سلب القافية عنه أيضا لأنها منه ، وخاصة فى الاصطلاح ، وكما يمتنع استعمال القافية فيه يمتنع استعمال الفاصلة فى الشعر ؛ لأنها صفة لكتاب الله تعالى فلا تتعداه [3].

تعريف السجعة :

أما الأسجوعة أو السجعة فتكون فى السجع ؛كما جاء فى قول سطيح الكاهن لربيعة ابن نصر ملك اليمن فى تفسير رؤياه : رأيتُ حُمَمَةً ، خرجت من ظُلمة ، فوقعت بأرض تهمة فأكلت منها كلَّ ذاتِ جمجمة) [4] .

فالكلمات : حممة ، وظلمة وتهمة وجمجمة كل منها أسجوعة .

---

١ - د/ زهران محمد جبر ، عروض الشعر الخليلى الجزء الثانى ص ٤٦ ، ٤٧ - الناشر المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة .

٢ - الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٣ / ٣٣٣ .

٣ - راجع ، الاتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى ج ٣ / ٣٣٤ .

٤ - ابن هشام الانصارى ، السيرة النبوية ، بتحقيق محمد بيومى الجزء الأول ص ١٦ . مكتبة الايمان - المنصورة - الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

فالسجع على هذا هو : تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد في الآخر(١) .

ولما كان القرآن منزها عن مقالة الشعر، فقد تشابهت معظم فواصل الآيات مع السجع، ونجم خلاف بين العلماء من حيث جواز إطلاقه على ما في القرآن من فواصل وعدم جواز ذلك وصارت قضية « ما لبثت أن دخلت معترك الجدل الكلامى بين الفرق الإسلامية فارتبطت بقضية الإعجاز بالنظم ، وبدأت تستقل بمباحث منفردة » (٢).

سجع الكهان *

« كانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطّلع على الغيب وتعرف ما يأتى به الغد بما يلقّى إليها توابعها من الجن ، وكان واحدها يسمّى كاهناً كما يسمى تابعه الذى يوحى إليه باسم « الرَّئىّ» . وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم، فكانت لهم قداسة دينية ، وكانوا يلجأون إليهم فى كل شئونهم، وقد يتخدونهم حكاماً فى خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعى، وقد نفّر هاشماً على أمية . وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم فى كثير من شئونهم، ومن ثم كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة ، ومما يلاحظ أنهم كانوا

---

١ - التهانوى، كشاف اصطلاحات الفنون ج ٤/ ص٥ بتحقيق د. لطفى عبد البديع وترجمة د. عبد النعيم محمد حسنين - طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٧ .

٢ - د/ عائشة عبد الرحمن ، الاعجاز البيانى للقرآن ص ٢٥٤ .

* انظر كتاب تاريخ الأدب العربى للدكتور / شوقى ضيف (العصر الجاهلى) من ص ٤٢٠إلى ص ٤٢٣ .

يكثرون فى اليمن وفى بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة مَنْ يتعمقون فى القدم، ولعل فى ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا فى كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم .

ومعنى ذلك أنه وجد فى العصر الجاهلى سجع كان يقوله الكهان، وقد اختلط الأمر على بعض قريش فى أول نزول الذكر الحكيم، فقرنوه بسجع كهنتهم وردّ عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جلّ وعز : ﴿ **فذكّر، فما أنت بنعمة ربك بكاهن** ﴾ الطور آية ٢٩- وقال : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ماتذكّرون** ﴾ الحاقة ٤٢ .

وهذا السجع الدينى كان يقابله سجع آخر فى خطابتهم ، بل فى كلامهم وأمثالهم التى دارت بينهم . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صورتية وتصويرية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء . » (١)

هل يجوز إطلاق السجع على الفواصل :

رأى فريق من العلماء والباحثين عدم جواز إطلاق صفة السجع على الفواصل التى هى رؤوس الآيات، وحجتهم فى ذلك أن السجع شيء يقصد فى نفسه ثم يحيل المعنى عليه ، أما الفواصل فهى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة فى نفسها ، ثم إن السجع أصله من سجع

---

١ - د/ شوقى ضيف ، العصر الجاهلى - ص ٤٢٣ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٤ .

الطائر وَشَرُفَ القرآنُ عن أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل فى صوت الطائر، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث فى آحاد الناس ، ولأن القرآن من صفات الله عز وجل فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذنُ بها، وإن صح المعنى .

قال الرمانى فى إعجاز القرآن : ذهب الأشعرية إلى امتناع أن يقال فى القرآن سجع، وفرقوا بأن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ثم يحال المعنى إليه ، والفواصل التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة فى نفسها. قال : ولذلك كانت الفواصل بلاغة ، والسجع عيبا وتبعه على ذلك القاضى أبو بكر الباقلانىْ ، ونقله عن نص أبى الحسن الأشعرى [١].

قال الشيخ الإمام على بن عيسى الرمانى (٢٩٦ - ٣٨٦هـ) فى رسالته (النكت فى إعجاز القرآن) ما نصه :

الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها . وهو قلب ما توجبه الحكمة فى الدلالة، إذ كان الغرض الذى هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعانى التى الحاجة إليها ماسة، فإذا كانت المشاكلة واصلة إليه فهو بلاغة، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولُكنة ، لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة - ومثّله مثل من وضع تاجاً ثم ألبسه زنجياً ساقطاً ،

---

١ - السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ، ج ٣ / ٣٣٥ ، وانظر أيضا كتاب ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ، بتحقيق أ. د / محمد زغلول سلام ، طبعة دار المعارف وفيه الرسالة الثانية بعنوان النكت فى إعجاز القرآن للشيخ الإمام أبو الحسن على بن عيسى الرمانى (٢٩٦/ ٣٨٦) .

أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلباً وقبح ذلك وعيبه يبين لمن له أدنى فهم، فمن دلك ما يحكى عن بعض الكهان : والأرض والسماء ، والغراب الواقعة بنقعاء، لقد نفر المجد إلى العشراء . ومنه ما حكى عن مسيلمة الكذاب : ياضفدع نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ولا النهر تفارقين .(١)

« فهذا أغث كلام يكون ، وأسخفه ، وقد بينّا علته ، وهو تكلف المعانى من أجله، وجعلها تابعة له من غير أن يبالى المتكلم بها ما كانت.

وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها، وإنما أخذ السجع فى الكلام من سجع الحمامة، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة، كما ليس فى سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة، إذ كان المعنى لما تكلف من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به، فصار بمنزلة ماليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة » (٢).

ورأى فريق آخر من العلماء والباحثين أنه يجوز إطلاق صفة السجع على فواصل الآيات القرآنية وأنه لاغضاضة فى ذلك لأن السجع من الأجناس التى يقع فيها التفاضل فى البيان والفصاحة ، كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة ، ويبنون الأمر فى ذلك على تحديد معنى السجع عند أهل اللغة فهو « موالاة

---

١ - الإمام على بن عيسى الرمانى ؛ من كتاب ثلاث رسائل الرسالة الثانية .

٢ - انظر ، ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ، تحقيق د/ محمد زغلول سلام طبعة دار المعارف ، الرسالة الثانية (النكت فى إعجاز القرآن) للشيخ الإمام على بن عيسى الرمانى (٢٩٦ - ٣٨٦) ص ٨٩، ص ٩٠ .

الكلام على وزن واحد » .

« والذى يجب أن يحرر فى ذلك أن يقال : أن الأسجاع حروف متماثلة فى مقاطع الفواصل. والفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعا وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع.

وضرب لايكون سجعا وهو ما تقابلت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين - أعنى التماثل والتقارب من أن يأتى طوعا سهلا وتابعا للمعانى ، وبالضد من ذلك حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان، وان كان من الثانى فهو مذموم مرفوض .

فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم الأول المحمود لعلوه فى الفصاحة، ومثّل للنوع الأول وهو المتماثل المحمود بقوله تعالى : ﴿والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر،والليل إذا يسر ،هل فى ذلك قسم لذى حجر﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ﴾ .

ولعل الذى دعا منكرى السجع فى القرآن لرأيهم هذا هو تنزيههم إياه عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض فى التسمية قريب .

والحقيقة أنه لافرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام فى

كونه مسجوعا .. ولا فرق بين المواصل التى تتماثل حروفها فى المقاطع وبين السجع » (١).

السجع نمط من أنماط النثر الفنى عند العرب :

السجع نمط من أنماط النثر الفنى ألفه العرب قبل الإسلام، وفى حاضر الإسلام ، وبعد الإسلام حتى عصرنا ، ومن يقرأ آداب العرب قبل الإسلام سيجد أن ما كان من كلامهم نثرا تتخلله الأسجاع بالفطرة والسليقة وقد يجد فيه تكلفا فى بعض الأحيان وهو مما يستكره لأنه يقصد لذاته ، أما ما سلم من التكلف فهو سجع مقبول محمود تطرب له آذان السامعين وتسمو به المعانى لديهم .

فلقد نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب الفصيح من كلامهم ، ولكى نعيش هذا المعنى لابد من الاطلاع على أساليب الكلام التى نقلها لنا القدماء فى كتبهم وقدموا لنا فيها ما أثر من كلام العرب فى الأحوال والموضوعات المختلفة، حتى نعلم كيف أن القرآن الذى هو من جنس كلام العرب معجز فى نظمه حتى عجزوا عن محاكاته ، ولسوف تتضح لنا حقيقة أنّ لغة العرب من أغنى اللغات كلها وأعرقها قدَماً وأعذبها منطقا وأسلسها أسلوبا ، وأغزرها مادة، وأوسعها تصريفا يدلّنا على ذلك بقايا شعرهم ونثرهم التى ربما تعود إلى نحو خمسين ومائة سنة قبل ظهور الإسلام ، كما تشهد أسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز بعلو شأن هذه اللغة بين القبائل العربية حيث كانت تعقد المسابقات للتحكيم فى شعر الشعراء، وخطب الخطباء فالكلام صناعتهم والبيان غايتهم .

---

١ - د/ حنفى محمد شرف ، مجاز القرآن البيانى بين النظرية والتطبيق ، ص ٤٥ من سلسلة كتب ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الكتاب الرابع ١٣٩٠ - ١٩٧٠ م .

ونعرض فيما يلي نبذة من كلامهم في الوصف كمثال يقرب لنا معنى الفصاحة التي وصلوا إليها ومدى البلاغة التي ارتقوا إليها في المنثور من كلامهم، قالوا : في قصصهم أن الحارث بن عمرو ملك كِنْدَة . * لما بلغه جمال بنت عوف بن محلم وكمالها وشدة عقلها ، دعا عند ذلك امرأة من كِنْدَة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب. فقال لها: إنه قد بلغني جمال ابنة عوف وكمالها، فاذهبي حتى تعلمي لي علمها. فمضت حتى انتهت إلى أمها، وهي أمامة بنت الحارث، فأعلمتها ما قدمت له. فأرسلت إلى ابنتها: أي بنيّة! هذه خالتك أتتك لتنظر إليك، فلا تستتري عنها بشيء إن أرادت النظر من وجه أو خلق، وناطقيها إن استنطقتك. فدخلت إليها فنظرت إلى مالم ير مثله قطّ. فخرجت من عندنها وهي تقول : تَرَكَ الخداع من كشف القناع. فأرسلتها مثلاً . ثم انطلبت إلى الحارث. فلما رآها مقبلة قال : ما وراءك ياعصام؟ قالت : صرّح المحض[1] عن الزبدة. رأيت جبهة كالمرآة المصقولة. بزينتها شعر حالك كأذناب الخيل، إن أرسلته خلته سلاسل ، وإن مشطته قلت : عناقيد جلاها الوابل . وحاجبين كأنهما خطا بقلم، أو سوّدا بحمم ، تقوسا على مثل عين الظبية العبهرة[2]. بينهما أنف كحد السيف المصقول ، حفت به وجنتان كالأرجوان في بياض كالجمان، شقه فيه فم كالخاتم لذيذ النسم، يه ثنايا غرّ ،

---

* انظر كتاب الفاخر، لمفضل الضبي (ت٢٩١) من ص ١٨٥ إلى ص١٨٦ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤.

١ – المحض : اللبن الخالص الذى لم يخالطه الماء . يقال للأمر إذا انكشف وتبين .

٢ – العبهرة : الممتلئة الجسم .

ذات أُشُر (١). تقلب فيه لسانا بفصاحة، وبيان بعقل وافر وجَواب حاضر، تلتقى دونه شفتان حمّاوان (٢) تحلبان ريقاً كالشهد؛ ذلك فى رقبة بيضاء كالفضة، ركبت في صدر كصدر تمثلا دمية، وعضدان مدمجان، يتصل بهما ذراعان، ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجس؛ ركبت فيهما كفان ، دقيق قصبهما، لين عصبهما . يعقد إن شئت منهما الأنامل . تتأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها. تحت ذلك بطن طوى كطيّ القباطيّ المدمجة،(٣) كسى (٤) عكناً كالقراطيس المدرجة، تحيط تلك العكن(٥) بسرة كالمدهن المجلوّ. خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ، ينتهى ذلك إلى خصر لولا رحمة الله لانبتر. لها كفل يقعدها إذا قامت، ويقيمها إذا قعدت ، كأنه دعص الرمل لبده سقوط الطل. تحملها فخذان لفاوان كأنهما قفلتا على نضد جمان، تحتهما ساقان خدلتان كلابرديتين شيبتا بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدمان كحذو اللسان . فتبارك الله مع صغرهما كيف يطيقان ما فوقهما ؟ ! (٦)

فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجه إياها.. فأنت ترى إلى روعة الوصف جمال السجع الذى يزيّن الكلام .

---

١ - أشر : حدة ورقة فى أطراف الأسنان . والجمان : حبات الفضة .

٢ - حماوان : حمراوان . ومدمجان : ملفوفان .

٣ - تتأ : برز ، القباطى المدمجة : الحرير المثنى .   ٤ - كسى : فى الميدانى : كسر .

٥ - تحيط تلك العكن بسرة : العكنة الطيّ الذى فى البطن من السمن والجمع عُكَن وأعكان.

خدلة : ممتلئة فى استدارة .

٦ - أبو طالب المفضل بن عاصم الضبى (ت ٢٩١) ، الفاخر، ص ١٨٦ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤م.

أسجاع العرب في الأنواء :

ومن قولهم في الأنواء تلك العبارات المسجوعة التي تصف مناسبات الأجواء مثل :-

- « إذا طلع السرطان ، استوى الزمان، وخضرت الأغصان ، تهادت الجيران » .

- إذا طلع البُطَيْن ، اقتُضِيَ الدينُ ، وظهر الزينُ واقْتُفِي بالعطاء والقَيْن .

- إذا طلع النجم - يعني الثريا - فالحرُّ في حدْم ، والعُشْبُ في حَطْم . والعانات في كَدْم .

- إذا طلعت الجوزاء تَوَقَّدَتْ المَعْزاء ، وكَنَّست الظباء ، وعرقت العِلْباء ، وطاب الخِباء .

- إذا طلعت الذِّرَاع ، حَسَرت الشمس القناع، واشعلت في الأفق الشعاع وترقرق السراب بكل قاع .

- إذا طلعت العوَّاء ، ضُرِب الخباء، وطاب الهواء ، وكُرِهَ العَرَاء، وَشَنَّن السقاء .

- إذا طلع السِّماك ، ذهب العِكَاك ، وقل الماء على اللكاك .

- إذا طلع سعد السعود ، تضر العود ، ولانت الجلود ، وكُرِهَ في الشمس القعود » (١)

وفي هذه العبارات كما نرى نوع من الحلية اللفظية يَحْسُن وقعها

---

١ - السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، المجلد الثاني ص ٥٢٩ ، ٥٣٠ نشر دار الفكر .

فى الأسماع وتأثيرها فى النفوس فيها ألفاظ منتقاة ومتناسبة فى الوزن، متشابهة فى النغم والجرس كما نلاحظ قصر الجمل أو توسطها وكثيرا ما كانوا يلتزمون ذلك فى الحكم والأمثال والوصايا يميلون فيها إلى الإيجاز من غير إخلال بالمعنى.

ولغة التخاطب عند عرب الجاهلية هى تلك التى تظهر فى أشعارهم وخطبهم وكتاباتهم لافرق بينها فى البلاغة إلا بقدر ما يستدعيه الموقف عند الخطابة أو الكتابة أو مقالة الشعر من نبالة الموضوع والتأنق فى العبارة وليس أدل على ذلك من حديث أم زرع المشهور الذى روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها :ـ

فقد روى عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت : (١)

جلست إحدى عشرة امرأة من أهل اليمن ، فتعاهدن وتعاقدن أن لايكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا .

فقالت الأولى : زوجى لَحْم جَمَلٍ غَث (٢)، على رأس جبَلٍ وَعْث (٣)، لاسهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقى (٤) .

قالت الثانية : زوجى لا أُبثّ خبَره، إنى أخاف أن لا أذَره ، إن

---

١ - قال السيوطى : راجعنا هذا الحديث على صحيح مسلم ١٥ : ٢١٢، والتجريد للزبيدى ٢ : ١٣٢ ؛ وفيما بين الأقواس زيادة ليست فى هذين الكتابين .

- توقدت المعزاء : أصابها الحر الشديد ، كنست الظباء: الظبى الكانس : هو الذى يدخل فى كناسه وهو موضعه من الشجر يكتن فيه ويستتر .

- عرقت العلياء ؛ كناية عن شدة الحر .

٢ - الغث = الهزيل .　　٣ - الوعث = الصعب المرتقى .

٤ - ينتقى = أى ليس له نِقىّ والنقى = المخ .

أذكره أذكر عُجَره وبُجَره (١).

قالت الثالثة : زوجي العَشَنَّق (٢)، إن انطقْ أطلَّق ، وإن أسْكُت أُعلَّق ، [على حدّ السِّنان المُذلَّق] (٣).

قالت الرابعة : زوجي كلَيْل تهامة ، لا حرّ ولا قُرّ ، ولا مَخافة ولا سآمة، [والغيث غيث غمامة] .

قالت الخامسة : زوجي إن دَخَلَ فَهِد ، وإن خَرَجَ أسِد ، ولا يسأل عما عَهِد [ولا يرفع اليوم لغد] .

قالت السادسة : زوجي إن أكل اقْتف (٤)، وإن شرب اشْتفّ، وإن اضطجع التفّ [وإذا ذبح اغتث] ولا يولج الكفّ ، ليعلم البثّ .

قالت السابعة : زوجي غيَاياء، أو عيَاياء طَباقاء، كل داء له داء،شجّك [أو بجّك] أو فلّك أو جمع كُلاًّ لك . (وغياياء بمعنى المنهمك في الشر، وعياياء بمعنى الذى تعيبه مباضعة النساء وطباقاء بمعنى أحمق).

قالت الثامنة : زوجي المَس مَسّ أرْنب ، والريح ريح زرْنب [وأنا أغلبه والناسَ يَغْلب] . (الزرنب نبت طيب الرائحة) .

قالت التاسعة : زوجي رفيع العماد ، طويل النّجاد ، عظيم (٥) الرماد، قريب البيت من الناد ، [لايشبع ليلة يضاف ، ولا ينام ليلةَ يخاف] .

---

١ – أرادت بعجره وبجره عيوبه الظاهرة والباطنة .

٢ – العَشَنَّق = السيء الخلق .   ٣ – المذلق = المحدد .

٤– في رواية البخاري ومسلم : لف . واقتف بمعنى جمع واستوعب واشتف بمعنى استقصى .

٥ – في رواية البخاري ومسلم : رفيع .

قالت العاشرة : زوجي مالك ، وما مَلَك (١) مالكٌ خير من ذلك، له إبل قليلات المسارح، كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت المِزْهر أيقن أنهن هوالك ، [وهو إمام القوم في المهالك] . .

قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زَرْع، وما أبو زَرْع ؟ أَنَاسَ من حُليّ أذنيّ [وفرعيّ] وملأ من شَحْم عَضُديّ، وبجحني فبجَحَتْ نفسي إليّ (٢)، وجدني في أهل غُنَيْمة بشقّ، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومُنَقّ؛ فعنده أقول فلا أُقَبّح، وأرْقُدُ فأتصبّح، وأشرب فأتقنّح، وآكل فأتمنّح. (أتقنح أي لا أجد مساغها وأتمنح أي أطعم غيري).

أم أبي زرع : فما أم أبي زَرْع ؟ عُكُومها رَدَاح ، وبيتُها فَساح. (عكومها : أعدالها؛ رداح = ملآى) .

ابن أبي زرع : فما ابنُ أبي زرع ؟ كَمَسَل شَطْبَة، وتُشْبعه ذِراع الجَفْرة ، [وترويه فِيقَة اليَعْرة ، ويميس في حَلَق النَّثْره] .

بنت أبي زَرْع: فما بنت أبي زرع؟ طَوْع أبيها، وطوع أمها [وزين أهلها ونسائها] وملء كسائها [وصِفْر (٣) ردائها] وعَقْر(٤) جارتها [قَبَّاء هَضِيمة الحشا ، جائلة الوشاح، عَكْناء ، فَعْماء، نَجْلاء، دَعْجاء،

---

١ - في رواية البخاري ومسلم : وما ملك .

٢ - في رواية البخاري ومسلم : فبجحت إلى نفسي . أناس = أثقلَ ، فرعي = يديّ بجحني = عظّمني ، غنيمة = تصغير غنمة ، وشق معناه جهد من العيش، وأصل صهيل = خيل ، وأطيط = إبل ، دائس = زرعَ ، منق = أصوات المواشي أو الدجاج .

٣ - قال ابن الأثير : صفر ردائها وملء كسائها ؛ أي أنها ضامرة البطن ، فكأن رداءها صفر، أي خال ، والرداء ينتهي إلى البطن فيقع عليه .

٤ - وعقر جارتها ، أي هلاكها من الحسد والغيظ ، ورواية البخاري ومسلم : وغيظ جارتها

رَجّاء، زَجّاء، قَنواء ، مـؤنقـة مُنفقـة، بُرود الظل . وفيّ الأل ، كـريمة الخلّ]. بَرودُ الظل « أرادت أنها وفيّ العهد ، وإنما ذكرّ ، لأنه ذهب به إلى معنى التشبيه أى هى كبرد الظل ، ومثل الرجل الوفيّ » (١).

جارية أبى زرع : فما جارية أبى زرع ؟ لاتبثّ حديثنا تبثيثاً ، ولا تُنقّثُ ميرتنا تنقيثا، ولاتملأ بيتنا تعشيشاً .

[ضيف أبى زرْع : فما ضيْفُ أبى زرْع؟ فى شِبَع ورِيّ ورتْع (٢)].

[طهاة أبى زرع : فما طهاة أبى زرْع ؟ لاتفتُر ولا تعرى ، تقدَح وتنصب أخرى ، فتلحق الآخرة بالأولى] .

[مال أبى زرع : فما مال أبى زرع؟ على الجُمَم معكوس، وعلى العُفَاة محْبوس]

قالت : خـرج أبو زرع من عندى والأوْطاب تُمْخَض، فَلَقيَ امـرأة معها ولدان لها كالفهْدين يلعبان من تحت خصْرها برمانتين ، فنكحها فأعجبته (٣) فلم تزل به حـتى طلقنى [فـاستبْدَلْتُ وكلّ بدَل أعـور] فنكحتُ بعده رجلا سَرِيًا ، شرِيًا ، ركب وأخذ خَطِّيا، وأراح عليّ نَعَماً ثريًا ، وأعطانى من كل رائحة زوجا، وقال : كلى أم زَرع، وميرى أهلَكِ.

قالت : فلو جَمَعْتُ كلّ شىء أعطانيه ما بلغ أصغرَ آنية أبى زرع .

---

١ - أبو عبيد الهروى (ت ٤٠١)، كتاب الغريبين غريبى القرآن والحديث جـ ١، ص ٧٢، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بتحقيق محمود محمد الطناحى ، القاهرة ١٣٩٠ - ١٩٧٠.

٢ - الرتع : التنعم .

٣ - عبارة البخارى ومسلم : يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فطلقنى ونكحها، فنكحت بعده رجلا سريا ، وركب شريا.

قالت عائشة : فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنتُ لكِ كـأبى زَرعٍ لأم زرع، إلا أنه طلّقـهـا وإنى لا أطلّقكِ » . فـقـالت عائشة : بأبى أنت وأمى! لأنت خير لى من أبى زرعٍ لأمّ زرعٍ .

ولقد ذكر الإمام السيوطى نماذج كثيرة من هذا الكلام المسجوع فى لغة العرب نقله من كتب السابقين فى موضوعات شتى ، مما يدل على أن العرب كانوا يميلون فى معظم الأحيان إلى السجع فى عباراتهم ويعدون ذلك من الفصاحة وحسن المقال ، فليس الشعر وحده الذى تظهر فيه براعتهم فى الكلام ولكن النثر المسجوع كان يُعدّ لونا من الألوان التى تظهر براعتهم فى البيان وصناعة الكلام .

ونجد حتى فى أشعار العرب ميلاً للكلام بالسجع فهم لايكتفون بالقافية وحدها، بل كانوا يلجأون إلى الترصيع أحياناً كقول الأعرابى فى ابنته راجيا أن تكبر ويأتيها الخُطاب من كل مكان :

يا ليتها قد لَبِسَتْ وَصْواصَا   وعلقت حاجبها تَنْماصَا (١)
حتى يجيئوا عُصَبا حِرآصَا   ويُرقصوا من حَوْلها إرْقَاصَا (٢)
فَيَجِدُونى عَكِراً حَيَّاصاً (٣) .

١ – الوصواص : البرقع ، والمعنى : ياليتها كبرت حتى تحجب فتلبس البرقع. والتماص : من النتف الذى تفعله النساء بحواجبها .

٢ – يجيئوا عصبا يعنى الخُطّاب يجيئون جماعات يطلبون يدها، يُرقصون : يعنى يُرقصون إبلهم فيستعجلونها فى السير .

٣ – العكِر : المراوغ ، وحيّاصا : معرضا عنهم .

انظر الفاخر، لابن عاصم ، بتحقيق عبد العليم الطحاوى ومحمد على النجار طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب ص ٣٦ .

فهو يتمنى لها أن تكبر وتلبس البرقع، وتنتف حاجبها تزيّنًا فيجيء في طلبها الخطاب من كل حذب وصوب يستحثون الإبل ويستعجلونها في السير، فيراوغهم هو ويميل عنهم .

فانظر كيف جمع بين السجع والتقفية في شعره الذي جعل يتغنى به ويدلل به ابنته، وحرف الصاد هو من حروف الصفير الذي تظهر معه الموسيقا ويلائم حالة الغناء والتدليل .

ومن ذلك أيضاً قول هند بنت عتبة يوم أُحُد تحرض رجال الكفار على القتال والنسوة معها تغني :

إن تُقْبِلوا نُعانِقْ ... ونَفْرِشُ النمارِقْ

أو تُدْبِروا نُفَارِق ... فِراقَ غَيْرِ وامِقْ (١)

وفي غزوة أحد أيضاً برز أبو دُجانة في عصابته الحمراء لما أعطاه رسول الله ﷺ السيف لمحاربة الكفار وخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل

ألاّ أقوم للدهر في الكيول ... أضرب، بسيف الله والرسول (٢)

كما أنهم قد يجعلون السجعة في الكلام القليل لتكون أوقع في النَغَم والفَهْمِ : فمن ذلك ما ورد في أمثالهم :

---

١ - النمارق : جمع نمرقة وهي الوسادة الصغيرة . الوامق : المحب (انظر سيرة ابن هشام ج ٣ / ٢٠) .

٢ - الكيول : آخر الصفوف في الحرب . وقال ابن هشام : ويروى في الكبول (أي القيود) (السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٠).

قولهم – وَيْلَه وعَوْلَه . (لمن يشتد حزنه وعويله) (١)

وقولهم – ماله ثاغية ولا راغية . (٢) (فيمن اشتد فقره : يعنى ماله نعجة والثغاء صوتها، ولا ناقة والرغاء صوتها) ؛

وقولهم – ماله سَبَدٌ ولا لَبد . (٣) (كناية عن الفقر ؛ فالسبد شعر المعز واللبد وبر الأبل).

وقولهم – ما يفقَه ولا ينْقَه . (٤) (أى ما يَعْلم ولا يفهم)

وقولهم – أحمقُ مئق .(٥) (للدلالة على الحمق وسوء الخلق معاً).

وقولهم – ما حجّ ولَا دجّ .(٦) (فالحاج الذى يحج لله عز وجل ، والداج : الذى يخرج للتجارة والمعنى لم يصب خيراً).

وقولهم – ما زلنا بالمهياط والمياط . (فالهياط أشد السّوقُ فى الورد، والمياط أشد السوْق فى الصدَر والمعنى ما زلنا فى المجىء والذهاب لم ننجز شيئا) .

** ** **

رأينا مما سبق أن العرب كانوا كثيرا ما يسجعون فى كلامهم ، وإنما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلامهم ، ولكن الرمانى يذكر أن الأشاعرة يذمون السجع ويعدونه عيباً ، كذلك ذهب الباقلانى إلى نفى هذا السجع عن القرآن بحجة أن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ثم يحال إليه المعنى « والأشاعرة بدورهم يتخذون قصة ذم السجع فى حديث الجنين متكأ لهم يستندون عليه ، ويبررون موقفهم بواسطته .

١- الفاخر لابن عاصم ص ٢٠ .
٢ - المصدر السابق ص ٢١ .
٣ - الفاخر لابن عاصم ص ٢٧ .
٤- المصدر السابق ص ٣٠ .
٥ - المصدر السابق ص ٣٤ .
٦ المصدر السابق ص ٣٥ .

ومن قصة هذا الحديث : أن حَمَلَ بن مالك بن النابغة كان قد تزوج بامرأتين: يقال لإحداهما مليكة بنت ساعدة وللأخرى : أم عفيفة بنت مسروح فتعايرتا كما هو الشأن دائما بين الضرتين ، فضربت أم عفيفة مليكة بمسطح بيتها أو بعمود فسطاطها، وهى حامل فألقت جنينها، ورفعت قضيتها إلى النبى ﷺ، فقضى على عاقلة الضاربة بغرة : عبد أو أمة. فقال أخوها العلاء بن مسروح يارسول الله : أنغرم من لاأكل ولا شرب ولا نطق ولا استهل فمثل هذا يُطَلّ ؟ » (١) .

« فقال عليه السلام : أسجع كسجع الجاهلية ؟ وقد رُوىَ قول النبى بعدة روايات : منها « أسجع كسجع الجاهلية وكهانتها ؟ ومنها «دعنى من أراجيز الأعراب » ومنها « أسجاعة بك » ومنها « أسجع كسجع الجاهلية ؟ » قيل : يارسول الله ، انه شاعر » ومنها « لسنا من أساجيع الجاهلية فى شيء » ومنها « إنما هذا من إخوان الكهان » ومنها « ان هذا ليقول بقول شاعر، بل فيه ـ أى الجنين ـ غرة » . (٢)

« ونحن لانفهم أن النبى ذم السجع من خلال هذا الحديث الذى تعددت الروايات فيه، فَرَدّ العلاء بن مسروح أهاج النبى ، وأثار ثائرته، لأنه ردّ ينطوى على إهداد حق من الحقوق المقررة فى شريعة الإسلام

---

١ - يُطَلّ = يهدر دمه .

٢ - د/ فتحى أحمد عامر، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ص ٢٠٦، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة القرآن والسنّة طبعة أولى ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥ م .

وبخاصة أن العلاء كان يتشادق بقوله المسجوع المبدوء باستفهام تشتم منه رائحة الاستنكار فكأنه اعترض على حكم النبى ، ولم يعجبه قوله ، وفى هذا فتح لباب واسع من أبواب التشكك فى الدين توشك أن تطل منه فتن كقطع الليل المظلم وكان النبى يغضب إذا كان مساس بدعوته ودينه بعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا . »

فالرسول برده هذا على العلاء بن مسروح لم يستنكر السجع فى ذاته وإنما استنكره باعتبار ما يؤدى إليه من الاعتراض على شريعة الإسلام . وكيف يستنكر النبى ﷺ السجع وهو نفسه يسجع ؟ أليس هو القائل فى دعائه (اللهم إنى أعوذ بك من قلب لايخشع، ومن دعاءٍ لايسمع ، ومن نفس لاتشبع ، ومن علمٍ لاينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع) رواه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح [1] .

حسم الخلاف بين العلماء فى وصف الفواصل بالأسجاع :

ولقد جمع بعض الباحثين المحدثين آراء الفريقين لبعض علماء البلاغة نحب أن نذكرها لنقف على وجهات النظر المختلفة ثم نخلص بعد ذلك إلى الرأى الراجح منها [2] :

---

١ - أبو عيسى الترمذى ، الجامع الصحيح، راجعه عبد الرحمن محمد عثمان ، الناشر محمد عبد المحسن الكتبى صاحب للكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الحديث رقم ٣٥٥٤ من الجزء الخامس ص ١٨٣ .

٢ - راجع : د/ احمد ابراهيم موسى ، الصيغ البديعى فى اللغة العربية من ص ٤٢ إلى ص ٤٩ ، الناشر دار الكتاب العربى نشر بالقاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م . من ص ٤٢ إلى ص ٤٨.

رأىُ الباقلانى :

عقد أبو بكر الباقلانى [١] فى كتابه إعجاز القرآن فصلا فضفاضا دلل فيه على نفى السجع من القرآن نلخصه فى النبذ التالية :

قال - ذهب أصحابنا كلهم [٢] إلى نفى السجع من القرآن. وذكره أبو الحسن الأشعرى فى موضع من كتبه .

وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع فى القرآن ، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك ، وأقوى أدلتهم على ذلك :

اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام، ولمكان السجع قيل فى موضع (هارون وموسى) وفى موضع (موسى وهارون).

وقد جاء فى القرآن سجع كثير فلا يصح أن يتفق كله غير مقصود إليه.

ويبنون الأمر فى ذلك كله على تحديد معنى السجع. قال أهل اللغة(هو موالاة الكلام على وزن واحد » قال ابن دريد . سجعت الحمامة معناها رددت صوتها وأنشد :

طربت فأبكتك الحمام السواجع   تميل بها ضحوا غصوب نوائع [٣]

---

١ - هو القاضى أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٤ .

٢ - أراد بهم أصحاب أبى منصور الماتريدى .

٣ - نوائع : موائل .

ثم أخذ الباقلاني يرد على المثبتين ما ذهبوا . قال : لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز، وكيف والسجع مماكان يألفه الكهان من العرب ، ونَفْيُه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر، لأن الكهانة تنافى النبوات وليس كذلك الشعر، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للذين جاءوا وكلموه فى شأن الجنينِ، كيف ندى من لا شرب [1] ولا أكل ولاصاح فاستهل أليس دمه قد يُطَلّ، فقال : أسجاعة كسجاعة الجاهلية. وفى بعضها أسجعاً كسجع الكهّان . فرأى ذلك مذموما لم يصح أن يكون فى دلالته . ثم قال : والذى يقدرونه أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكونُ الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعا لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى، ثم قال : إنه لو كان سجعا لعارضوه لقدرتهم على ذلك ، ولما تحيروا فيه فوصفوه بالسحر، ثم قال : ولامعنيٍ لقولهم إن ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد ورويّ غير مختلف، لأن ما جرى هذا المجرى لايبنى على الاشتقاق وحده ولو بنى عليه لكان الشعر مسجعا لأن رَوِيَّه يتفق ولا يختلف . ثم قال : وأما الأمور التى يستريح إليها الكلام فإنها تختلف فربما كان ذلك يسمى قافية وذلك إنما يكون فى الشعر، وربما كان ما

---

١ - فى الأصل . من لا أكل ولا شرب ولعل فيه تقديما وتأخيراً حتى يوافق جميع الروايات فى سائر المصادر

ينفصل عنده الكلامان يسمى مقاطع السجع، وربما سمى ذلك فواصل، وفواصل القرآن مما هو مختص بها لاشركة بينه وبين سائر الكلام ولاتناسب. ثم قال : وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون فى موضع وتأخيره عنه فى موضع لمكان السجع فليس بصحيح، لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه وهى : أن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة ، وأعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكررا ، ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدى معناها ونحوها وجعلوها بإزاء ما جاء به وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه وإلى مساواته فيما جاء به ، كيف وقد قال لهم : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » - الطور٣٤- ، فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها إظهار الإعجاز على الطريقين جميعا دون التسجيع الذى توهموه، ثم قال : فبان بما قلنا أن الحروف التى وقعت فى الفواصل متناسبة موقع النظائر التى تقع فى الأسجاع لايخرجها عن حدها ولا يدخلها فى باب السجع. ثم ختم الفصل بقوله : ولا بد لمن جوّز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم لما ذهب إليه النظّام وعبّاد بن سليمان وهشام القرطى ويذهب مذهبهم فى أنه ليس فى نظم القرآن وتأليفه إعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صرفوا عنه ضربا من الصرف .» (١)

---

١ - نقله د / أحمد إبراهيم موسى ملخصاً من « كتاب إعجاز القرآن » للباقلانى ونقلناه عنه من كتابه « الصبغ البديعى » .

رأى أبى هلال العسكرى [1] :

عقد أبو هلال فى الصناعتين بابا للسجع والازدواج جاء فيه : «وكذلك جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة لما يجرى مجراه من كلام الخلق، ألا ترى قوله عزّ اسمه : « والعاديات ضبحا. فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحا. فأثرن به نقعا. فوسطن به جمعا » قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن : « والسماء والأرض. والقرض والفرض . والغمر والبرض » [2] ومثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف. ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل قال له : « أندى من لاشرب ولا أكل ولاصاح فاستهل فمثل ذلك يطل » أسجعا كسجع الكهان. لأن التكلف فى سجعهم فاش ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعا لقال : «أسجعا» ثم سكت . وكيف يذمه ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرىء من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام مثل قوله : « أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

وكان صلى الله عليه وسلم ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ واتباع الكلمة أخواتها كقوله : « أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة » وإنما أراد ملمّة. وقوله : « ارجعن مأزورات غير

---

١ - هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

٢ - الغمر : الماء الكثير . والبرض : القليل .

مأجورات» وإنما أراد موزورات من الوزر فقال: مأزورات لمكان مأجورات قصدا للتوازن وصحة التسجع، فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف . »[1]

رأى ابن سنان الخفاجي[2] :

قال ابن سينا في سر الفصاحة : « ومن المناسبة بين الألفاظ في الصيغ السجع والازدواج ويحد السجع بأنه تماثل الحروف في مقاطع في الكلام وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً . وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتعمّل واستكراه فأذهب طلاوة الكلام وأزال ماءه. وحجة من يختاره . أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها ويظهر آثار الصنعة فيها، ولولا ذلك لم يرد في كلام الله تعالى ، وكلام النبى صلى الله عليه وسلم ، والفصيح من العرب . وكما أن الشعر يحسن بتساوى قوافيه ، كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف في فصوله ثم قال : والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسراً بلا كلفة ولامشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه ولايكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل أنه لأجله ورد، ليصير وصلة إليه، ثم قال : أما الفواصل التى في القرآن فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعا وفرقوا فقالوا : إن السجع هو الذى يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه، والفواصل هى التى تتبع المعانى ولا تكون

---

١ –تلخيص د/ أحمد إبراهيم موسى ، الصبغ البديعى ص ٤٤ الهامة : الدابة . السامة : الموت وذات السم من الحيوان. العين اللامة المصيبة بسوء .

٢ – هو الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى سنة ٤٦٦. وكان ممن يقولون بالصرفة .

مقصودة فى أنفسها، وقال على بن عيسى الرمانى ، « إن الفواصل بلاغة والسجع عيب ، وعلل ذلك بما ذكرناه من أن المسجع تتبعه المعانى والفواصل تتبع المعانى . وهذا غير صحيح . »

والذى يجب أن يحرر فى ذلك أن يقال : إن الأسجاع حروف متماثلة فى مقاطع الفصول على ما ذكرناه، والفواصل على ضربين ، ضرب يكون سجعا وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع ، وضرب لايكون سجعا وهو ما تقاربت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل ولايخلو كل واحد من القسمين أعنى المتماثل والمتقارب من أن يأتى طوعا سهلا وتابعا للمعانى وبالضد من ذلك حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى ؛ فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان من الثانى فهو مذموم مرفوض ، ثم أشار إلى أن ما فى القرآن كله إنما هو المحمود وساق أمثلة للمتماثل ثم قال : « وهذا جائز أن يسمى سجعا لأن فيه معنى السجع ولامانع فى الشرع يمنع من ذلك . »

ثم قال : وأظن أن الذى دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما فى القرآن فواصل ولم يسموا ماتماثلت حروفه سجعاً رغبة فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم وهذا غرض فى التسمية قريب، فأما الحقيقة فما ذكرناه لأنه لافرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام فى كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه فى كونه عرَضا، وصوتا، وحروفاً، وكلاماً ،وعربياً ، ومؤلفاً ، وهذا مما لايخفى فيحتاج إلى زيادة فى البيان، ولافرق بين الفواصل التى تتماثل حروفها فى المقاطع وبين السجع.

رأى ابن الأثير صاحب المثل السائر (١):

عقد ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر» فصلا مطولا فى السجع حذا فيه حذو أبى هلال فى الصناعتين، وأربى عليه حتى تكلف إلى أن جعل ما ورد من نظم القرآن غير مسجع لإرادة الإيجاز والاختصار، استمع إليه يقول (٢): « فإن قيل : فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبت إليه فكان ينبغى أن يأتى القرآن كله مسجوعا وليس الأمر كذلك بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع . قلت فى الجواب : إن أكثر القرآن مسجوع حتى أن السورة لتأتى جميعها مجموعة وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك مسلك الإيجاز والاختصار، والسجع لايواتى فى كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب (٣) ثم قال : وها هنا وجه آخر أقوى من الأول ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين ، ثم أربى عليه في توجيه الحديث ، قال : إن النهى لم يكن عن السجع نفسه وإنما النهى عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع. ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه

---

١ - هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلى الشافعى المتوفى سنة ٦٣٧.

٢ - المثل السائر - ٧٦ .

٣ - وتلك جرأة وبعد عن هدف التوفيق من ابن الأثير إذ كلامه يعطى أن الله ترك السجع إلى غيره لأنه لايواتى فى كل موضع على حد الإيجاز والاختصار تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً.

وسلم فى الجنين بغرّة عبد أو أمة. قال الرجل « أأدى من لاشرب ولا أكل ، ولانطق ولااستهل ، ومثل ذلك يطل» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أسجعا كسجع الكهّان» ، أى أتتبّع (١) سجعاً كسجع الكهان، وكذلك الكهنة كلهم فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعاً . ثم قال فالسجع إذن ليس بمنهى عنه وإنما المنهى عنه هو الحكم المسجوع (٢) فى قول الكاهن، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « أسجعاً كسجع الكهّان» أى أحكما كحكم الكهّان، وإلا فالسجع الذى أتى به الرجل لابأس به لأنه قال ، أأدى من لاشرب ولا أكل ، ولانطق فاستهل، ومثل ذلك يطل، وهذا الكلام حسن من حيث السجع وليس بمنكر لنفسه، وإنما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة » .

رأى التنوخى : (٣)

قال التنوخى (٤) « ومن عاب السجع مطلقاً فمخطىء لأن السجع فى كلام الله كثير وفى كلام النبى صلى الله عليه وسلم والفصحاء كقس وسحبان، وإنما يعاب السجع إذا احتاج متكلفه إلى تنقيص المعنى أو زيادته وفعل ذلك . فالذى فاته من المعنى يقبح وترك السجع لا يقبح فيكون حينئذ السجع قبيحا لاستلزام القبح. وبهذا يجاب عن قول النبى

---

١ - هكذا فى الأصل ولعلها أتسجع .

٢ - فى الأصل المتبوع والظاهر أنها المسجوع .

٣ - هو الإمام زين الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمرو التنوخى أحد أعيان المائة السابعة الهجرية .

٤ - فى كتابه الأقصى القريب فى علم البيان .

صلى الله عليه وسلم « أسجعا كسجع الكهان » . فإنه لو عاب السجع مطلقاً لما نطق به، ولا يمكنه أن يعيبه مطلقاً لمجيئه فى كتاب الله تعالى كثيرا، فالمعيب هو سجع مخصوص وهو الذى مثّله بسجع الكهان وهو الذى ينقص المعنى أو يزيده » .

رأى اليمنى صاحب الطراز [1] :

عرض للمذهبين فى السجع ؛ الجواز والكراهة وساق أدلة للمذهبين تدور حول ما تقدم، وجنح إلى الجواز، وبيّن أنه هو المعول عليه عند علماء البيان.

هذه جولة جلناها فى كتب المؤلفين الذين عرضوا للسجع عرضناها بإيجاز استيفاء للبحث وتتميما للغرض » [2].

وبعد هذا العرض لموجز الآراء لدى العلماء السابقين يعلق الباحث بقوله :

والذى نراه مطمئنين إليه هو ما يراه المجيزون من أمثال أبى هلال وابن سنان والتنوخى باحتياطاتهم المتقدمة. وذلك لحسن موقعه فى السمع وتأثيره فى النفس ، وخلابته للعقل، وسهولته فى الحفظ، ولانرى مانعاً من إطلاق اسم السجع على ما فى القرآن من فواصل، مادام لم يرد نص شرعى صريح يمنع من ذلك كما قال ابن سنان الخفاجى » [3].

---

١ - هو أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى اليمنى المتوفى سنة ٧٤٩ .

٢ - د/ أحمد إبراهيم موسى ، الصبغ البديعى ، ص ٤٩ .

٣ - هذا رأى الدكتور أحمد ابراهيم موسى صاحب كتاب « الصبغ البديعى فى اللغة العربية » ، وهو الرأى المعول عليه عند أهل البلاغة وعلماء البيان الذين يجيزون إطلاق اسم السجع على ما فى القرآن من فواصل .

ونحن مع كل من أجاز إطلاق اسم السجع على الفواصل القرآنية، إذ لاتعارض بين الفاصلة والسجعة، ولانرى تنافرا أو بعداً بينهما :

« فالقول بالسجع فى القرآن تقرير للفاصلة، والقول بالفاصلة ليس انكارا للسجع فى حقيقة الأمر، إذ هما متقابلان أو متلاقيان فى معناهما .

فكلمة آخر الآية تسمى رأس آية أو فاصلة، فإذا توالت الآيات على نمط واحد، وقد اشتركت حروف أواخرها سميت فواصل أو أسجاعا لاغضاضة فى أيهما، إلا أن الفواصل أعم .

والفواصل فى القرآن الكريم تكون شاجية النغم، حلوة الجرس عذبة الرنين، تطرب بلفظها، كما تطرب بمعناها، ليتم لها الحسن من جميع جهاته . » (١)

* * *

---

١ - د / فتحى أحمد عامر ، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ص ٢١٦ .

الفصل الثاني
الإعجاز البلاغي للفواصل القرآنية

وفيـــــه :

- بلاغة الفواصل .
- الفواصل من ضروب الإعجاز البلاغى فى القرآن .
- من أسرار الإعجاز فى الفواصل :

١ - المزاوجة بين الفواصل .

٢ - تناسب الفاصلة .

٣ - التمهيد للفواصل بألفاظ تمهد لوقوعها .

٤ - تكرير الفواصل فى بعض السور .

٥ - الربط الفنى فى الفواصل .

٦ - رعاية الفواصل .

٧ - تحقيق التناغم والإيقاع المناسب .

بلاغة الفواصل

من أروع صور التحدى التى تميز بها القرآن تلك الفواصل التى تتمتع بها الآيات، حيث تكون الفاصلة شاهدة فى موقعها على أنها من لدن حكيم خبير، وتدل بنفسها على أنها ليست من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم كما أنها تدل فى الوقت نفسه على صدق نبوته. وكما يعلم أن أعداء النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يكيدون له كيداً، ومن كيدهم أن أحدهم وهو النضر بن الحارث كان يجلس إلى الناس كما كان يجلس الرسول ﷺ وكانت قريش تستملح حديث النضر، وتنصرف عن النبى ﷺ وكان النضر يستهويهم بحديثه عن ملوك الفرس والعجم ويقص عليهم من أخبارهم بأسلوب يجذب إليه أسماع مريدين من العرب ، ويستميل به قلوبهم ، لكنهم لم يلبثوا أن أصاخوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم لروعة ما يجدونه فى حديثه ﷺ من تلك الفواصل التى تأخذ بمجامع قلوبهم ولما تحمل إليهم من المعانى الجديدة التى لا يجدون لها مثلا فى حديث النضر بن الحارث الذى كان يروى الحكايات عن رستم وعن أسفنديار وملوك فارس .

قال ابن اسحاق : جلس الرسول يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم فى المجلس ، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم (١) ﴿

---

١ - ابن هشام - السيرة النبوية ، بتحقيق محمد بيومى ج٢/ ٨ مكتبة الايمان - المنصورة ١٤١٦ - ١٩٩٥ .

إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ماوردوهاوكل فيها خالدون، لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون ﴾ الأنبياء ٩٨ - ١٠٠ .

قال ابن اسحاق : وأقبل عبد الله الزبعرى حتى جلس فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى؛ والله ماقام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم؛ فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته فسلوا محمدا : أكل ما يُعبَد من دون الله في جهنم مع مَنْ عَبَدَهُ ؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد عيسى ابن مريم عليهما السلام فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أن قد احتج وخاصم ، فذُكر ذلك لرسول ﷺ من قول ابن الزبعرى فقال رسول الله ﷺ وكل ما أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبَدَه، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته (١) .
فأنزل الله تعالى عليه في ذلك ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لايسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ الأنبياء ١٠١ ، ١٠٢ . أي أن عيسى ابن مريم وعزيرا ومن عُبِدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، إلى قوله تعالى

---

١ - ابن هشام - السيرة النبوية ، ج ٢/ ٨ .

﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾ الأنبياء ٢٦ - ٢٩ .

ومعنى كلام الوليد بن المغيرة : ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد ، ... أن النضر انهزم فى محاجته للرسول ﷺ ولم يستطع مقارعة الحجة بمثلها .

كما يدل الحوار الذى جرى بين عبد الله بن الزبعرى والوليد على أنهم كانوا يجادلون الرسول ﷺ ، فيرد عليهم بالآيات المنزلة من عند الله فى شأن ما يذكرونه، ويفحمهم بها فلا يجدون كلاما من مثل ما يأتى به النبى ﷺ ، ولقد عجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته : ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون﴾ الزخرف : ٥٧ أى يصدون عن أمرك بذلك من قولهم ، فهذا الكلام المحكم بالفواصل التى هى كالقوارع التى تحسم الخصومة وتبين وجه الحق فى بلاغة لايستطيعون الإتيان بمثلها، أشعرهم جميعا بالعجز فى محاجة الرسول ﷺ .

ولما عجزوا عن محاجة الرسول ﷺ اعترفوا بتفوقه عليهم ولكنهم كابروا ولجأوا إلى حيل الكلام وإلى المفاوضة التى تكون بعد الهزيمة ، فاجتمع الأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف والعاص بن وائل السهمى ، وكانوا ذوى أسنان فى قومهم فقالوا : يامحمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما يفيد خيراً مما تعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا

أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولى دين ﴾ أى إن كنتم لا تعبدون الله إلا أن أعبد ما تعبدون فلا حاجة بذلك منكم ، لكم دينكم جميعا ولى دينى (١))
فانظر إلى هذا الرد الإلهى فى الآيات المنزلة التى حسمت الموقف على أبلغ ما تؤدى إليه الفواصل من المعانى فى إحكام لايستطيعه بشر وهم أهل البلاغة والفصاحة .

ولقد نزلت سورة القلم لتفضح مسلك هؤلاء الكفار فى مراودة النبى ﷺ عن دينه فى أول الدعوة ولتثبت النبى ﷺ فى أمر مواجهتهم وتسفيه أحلامهم حيث كانت لهم عقول لاينتفعون بها ولم يستعملوها فيما ينجيهم ويسعدهم وتولى الله سبحانه وتعالى الدفاع عن النبى ﷺ فقال عز من قائل ﴿ فلا تطع المكذبين ، ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ أى لاتطع يامحمد رؤساء الكفر والضلال فيما يدعونك إليه فإنهم تمنوا لو تلين لهم فتترك بعض ما لايرضونه مصانعة لهم وقد روى أن الكفار قالوا للنبى ﷺ : لو عبدت الهتنا لعبدنا آلهتك .

كما أن الوليد بن المغيرة قد جاءه بعض كفار مكة وسألوه أن يقول رأيه فى القرآن حين اقترب موسم الحج وأرادوا أن يجمعوا قولهم فى ما جاء به محمد ﷺ من القرآن حتى يواجهوا به الحجيج وقبائل العرب كى لايكذبهم أحد فى وصف ما جاء به ، فقال لهم الوليد بن المغيرة : بل أنتم فقولوا أسمع !

---

١ - ابن هشام - السيرة النبوية ، ج ٨/٢ .

قالوا : نقول كاهن !

قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه !

قالوا : فنقول مجنون

قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ، ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر !

قالوا : فنقول ساحر .

قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لغدق – وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك (١).

فاسمع لقول الوليد « وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه

---

١ – ابن هشام الانصارى – السيرة النبوية بتحقيق الشيخ محمد بيومى ج ١/ ١٦ – الإيمان – المنصورة – طبعة ١٩٩٥ .

باطل » .

فهذه شهادة منه تدل على مدى العجز والبطلان أمام القرآن ، إذ ليس لهم أن يأتوا بمثله فيضارعوه أو يضاهوه .

وما ذاك إلا لأن أسجاعهم مهما تفننوا فيها لاتضاهى الفواصل ولاترقى إلى التأثير فى النفوس بنزع العقيدة الباطلة كما تؤثر الفاصلة ؛ ناهيك عن روعة النظم التى تتسلل إلى النفوس وتهز المشاعر وتضيف إلى معارفهم الشيء الكثير الذى يجهلونه ولا تنهض إليه بلاغتهم بحال .

وتأتى الآيات فى سورة المدثر متوالية لتصور حال الوليد بن المغيرة الذى أفتى كفار العرب بهذه الفتوى الشنيعة وهى وصف القرآن بالسحر مع علمه بأنه حق مقابل نعمة الله بالكفر ونادى على نفسه بالهلاك جزاء كذبه وافترائه، وكان أولى به أن يعترف بالحق ولا يكتمه لاسيما أنه كان من وجهاء مكة فقد كان ماله ممدودا ما بين مكة والطائف وبستانه لاينقطع نفعه شتاءً ولا صيفاً وله الكثير من الخيل والإبل والغنم كما أن له أولاداً يقيمون معه فى بلده ويحضرون معه المحافل والمجامع وكانوا عشرة ، منهم (خالد ، وهشام ، والوليد) (١). وعلى الرغم من مظاهر الجاه والعز والسيادة التى تخول له أن يقول قولة الحق أمام الكفار ، إلا أنه كان كذابا مصرا على الكذب والكفر مقيما على العناد لمحمد ﷺ والجحود لما جاء به من القرآن ، فحكم على نفسه بسوء العاقبة ولنسمع لصوت الحق تبارك وتعالى فى تلك الآيات المنزلة فى شأنه والتى تؤدى فيها الفواصل أروع ما يكون من أسلوب التهديد والوعيد فى

---

١ - وهؤلاء أسلموا جميعاً .

سورة المدثر ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكّر وقدّر ، فقُتِلَ كيف قدّر ، ثم قتل كيف قدّر، ثم نظر، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلاّ سحر يؤثر إنْ هذا إلا قول البشر، سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لاتبقى ولا تذر ... ﴾ .

فانظر كيف تتوالى الآيات القصيرة ، التى تلعب فيها الفواصل دوراً كبيراً فى إضفاء المعانى الكبيرة والتصوير الدقيق لحال الوليد فذلك قوله تعالى ﴿ إنه فكّر وقدّر﴾ الآيات ، تركنا الوليد يفكّر ويقدّر ، ولنرجع إليه لنرى ماذا فعل بعد ، قال تعالى ﴿ ثم نظر﴾ أى أجال النظر مرة أخرى متفكراً فى شأن القرآن ﴿ ثم عبس ﴾ أى ثم قطّب وجهه وكلحه ضيقاً بما يقول ﴿ وبسر﴾ أى وزاد فى القبض والكلوح، كالمهتم المتفكر فى أمر يدبره، والبسور تقطيب الوجه وهو أشد من العبوس ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أى ثم أعرض عن الإيمان، وتكبر عن اتباع الهدى والحق فقال : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ أى فقال : ما هذا الذى يقوله محمد إلا سحر ينقله ويرويه عن السحرة فقال: ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ أى ليس هذا كلام الله، وما هو إلا كلام المخلوقين ، يخدع به محمد القلوب ، ويؤثر فيها كما يؤثر السحر بالمسحور قال الألوسى : هذا كالتأكيد للجملة الأولى، لأن المقصود منهما نفى كونه قرآنا أومن كلام الله تعالى، ولذلك لم يعطف عليها بالواو ، وفى وصف إشكاله واستنباطه هذا القول السخيف استهزاء به، وإشارة إلى أنه عن الحق بمعزل ، ويظهر من تتبع أحوال الوليد، أنه إنما قال ذلك عناداً وحمية جاهلية، لا جهلاً

بحقيقة الحال، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون !! ﴿ صأصليه سقر﴾ أى سأدخله جهنم يتلظى حرها ، ويذوق عذابها ﴿وما أدراك ما سقر﴾ ؟ استفهام للتهويل والتفظيع أى وما أعلمك أى شيء هي سقر؟ ﴿ لاتبقّى ولا تذر﴾ أى لاتبقى على شيء فيها إلا أهلكته، ولا تترك أحداً من الفجار إلا أحرقته قال ابن عباس : لاتبقى من الدم والعظم واللحم شيئاً ، فإذا أعيد خلقهم من جديد تعاود إحراقهم بأشد مما كانت وهكذا أبداً ﴿ لوّاحة للبشر﴾ أى تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهَوَلها كقوله تعالى ﴿ وبرّزت الجحيم لمن يرى﴾ قال الحسن : تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام حتى يروها عياناً فهي بارزة إلى أنظارهم، يرونها من غير استشراف ولا مدّ أعناق ﴿ عليها تسعة عشر﴾ أى خزنتها الموكلون عليها تسعة عشر ملكاً من الزبانية الأشداء كقوله تعالى ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (١) .

هذا التنوع في الفواصل ما بين الدال المفتوحة ، التي تحمل بين طياتها معاني الرحابة والاتساع ، ثم الراء الساكنة التي تحمل كل معاني الهول والخطر إلى جانب التصوير الرائع والدقيق في النظم والربط بين الآيات وكأن القارىء للقرآن يسمع ويرى ويستشعر في نفسه هول الخطيئة في كفر الوليد بالنعمة وما ينتظره من العذاب الأليم، وهذا الجرس الموسيقي بين الآيات المتوالية المتناغمة تؤديه الفواصل على أروع ما يكون الأداء حتى تفي بالمعاني المديدة في إيجاز معجز .

---

١ - راجع تفسير الصابوني ج ٣/ ٤٧٦ .

ولما مات القاسم ابن النبى ﷺ قال بعض الكفار وهو العاص بن وائل : دعوه فإنه رجل أبتر لاعقب له »

فأنزل الله سورة الكوثر يرد بها عن النبى ﷺ ليبيّن للناس أن العاص بن وائل هو الأبتر المطرود من رحمة الله وإنْ كان له أولاد . بل إن المعنى يمتد ليشمل كل من يبغض الرسول ﷺ . فقال عزّ من قائل : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر ، فصلّ لربك وانحر إنّ شانئك هو الأبتر** ﴾ ، لاحظ الفواصل مع جمال النغم الظاهر من تسكين حرف الراء عند القراءة، بل توافق الحروف التى تتألف منها الكلمات بحيث إذا قطّعنا الآية الأولى منها تقطيعا عروضيا وجدناها تتفق مع تفعيلة بحر المتدارك : فعلن فعلن فعلن فعلن، ولاحظ كذلك ملائمة الكلمات لأغراض السورة فكلمة الكوثر مثلا مما يحتمل التأويل ويستغنى عن الدليل، وقد قيل إن معناها الخير الكثير، وقيل إن الكوثر نهر من أنهار الجنة ، وقيل غير ذلك حتى بلغ ما ذكر فى الكوثر ستة وعشرين قولا ، ثم فعل الأمر (صلّ) الذى يجمع كل مظاهر العبادة وكلمة (لربك) حيث اللام للالصاق والاختصاص و (رب) التى تدل على الربوبية والملكية وأنه صاحب النعم والخيرات الكثيرة والدنيا والآخرة مع إضافة كاف الخطاب ومافيها من تعظيم النبى ﷺ وفعل الأمر (انحر) حيث لايكون النحر إلاّ للإبل وهو بمنزلة الذبح فى البقر والغنم وفى هذا أداء حق الشكر الواجب للمنعم سبحانه وتعالى ، ثم ملاءمة مابين شانئك والأبتر وهى أيضا مما يحتمل التأويل فلا يقتصر المعنى على لعن العاص بن وائل الذى قال حين مات القاسم ابن النبى ﷺ : « دعوه فإنه رجل أبتر العقب له » فأنزل الله هذه السورة لبيان أن العاص بن وائل هو الأبتر المطرود من رحمة الله

وإن كـان له أولاد. بل إن المعنى يمتـد ليشـمل كل من يـغض الرسـول ﷺ.

ونستطيع أن نوجز مظاهر البلاغة فى هذه السورة فيما تضمنته من وجوه البديع والبيان كما جاء فى تفسير الصابونى فيما يلى :

١ - صيغة الجمع الدالة على التعظيم (إنا أعطيناك) ولم يقل أنا أعطيتك.

٢ - تصدير الجملة بحرف التأكيد الجارى مجرى القسم (إنا) لأن أصلها إنا نحن.

٣ - صيغة الماضى المفيدة للوقوع (أعطيناك) ولم يقل: سنعطيك لأن الوعد لما كان محققا عبّر عنه بالماضى مبالغة كأنه حدث ووقع .

٤ - المبالغة فى لفظة (الكوثر) .

٥ - الإضافة للتكريم والتشريف (فصلّ لربّك) .

٦ - إفادة الحصر (إن شانئك هو الأبتر) .

٧- المطابقة بين أول السورة وآخرها بين (الكوثر والأبتر) حيث إن الكوثر تعنى الخير الكثير، والأبتر تعنى المنقطع عن كل خير، فهـذه السورة على وجازتها جمعت فنون البـلاغة والبيان فسبحان منزّل القرآن (١).

« هكذا تتجلى روعة البلاغة فى القرآن العظيم فى فواصل الآيات

---

١ - راجع تفسير الصابونى ج ٣/ ٦١٢ .

لاسيما سور المفصل، حيث تأتى الآيات فيها قصيرة متوالية شديدة الإيجاز شديدة الوقع ، يتنوع فيها الأسلوب بين الترغيب والترهيب لتخلع الوثنية من قلوب العرب المشركين، ولتثبت دعائم الإيمان فى صدورهم، ولهذا نجد الإيجاز الشديد والمعنى المديد فى توالى الآيات القصار بحيث لايتسنى لبشر أن يأتى بمثل سورة واحدة من قصار سوره، ولا حتى بآية واحدة مثل أياته، وليس معنى الكلام أن باقى القرآن من مدنيه ومكيه لاتظهر فيه البلاغة كسور المفصل ، فإن ذلك مالا ينكره أحد ولكن السور المكية تتميز فى الأغلب الأعم بهذا الإيجاز لمناسبة بداية الدعوة والتأثير فى نفوس العرب الموصوفين بالأنفة والإباء .

وإنك لتجد الجرس الموسيقى السريع القوى فى الكلمات البليغة المتلاحقة لتترك فى نفوس العرب ونفوس المتكبرين المكابرين من أى ملة أثرا عظيما ووقعا شديدا عند سماعهم لهذه الآيات الموجزة ذات المعانى المستفيضة ولعل ما فى ذلك التدافع فى الآيات القصيرة ذات النغم المتوافق الناجم عن تناسب الفواصل ما ينبه حواس السامع إلى الاستجابة لذلك الجرس والتفاعل معه والتأثر به » (١).

١ - د/ كمال الدين عبد الغنى المرسى ، مراعاة النظير فى كتاب الله العلىّ القدير، دار المعرفة الجامعية ، باسكندرية سنة ١٩٩٧، ص ١١٦ ، ١١٧

الفواصل من خصائص النظم القرآنى

يقول الدكتور تمام حسان :

« حين سمع كفار قريش تلاوة القرآن لأول نزوله حاروا فى أمر نظمه. فلقد كانوا يعرفون من ضروب الكلام العربى لأيامهم الشعر والخطابة والسحر وسجع الكهان ولم يكن القرآن فى تراكيبه ولا فى أسلوبه يشبه واحدا من هذه الأضرب . ولكنهم لم يؤمنوا بأن هذا الطراز الفريد من النظم من وحى السماء فنسبوه إلى البشر منكرين مصدره الإلهى فكان عليهم وقد أنكروا ذلك أن يلحقوه بنوع من أنواع الكلام التى تقدم ذكرها . فنظروا فى خصائص تراكيبه وفى أسلوبه وفكروا فى أمره فلم يستطيعوا أن ينسبوه إلى الخطابة لاختلاف بينه وبينها فى الأسلوب والوظيفة ولأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم بينهم خطيبا بما أنزل عليه من القرآن ، ولم ينسبوه إلى سجع الكهان لوضوح مقاصده وغموض السجع ولأنه ليس مسجوعا ولا يلتزم ذلك فى أسلوبه. بقى من أنواع الكلام فى عهدهم السحر والشعر . ولم يترددوا فى اتهام القرآن بنسبته إلى أحد هذين النوعين . أما السحر فقد راعهم أن القرآن حين هدى الله به من هدى من المؤمنين نأى بعضهم بدينه عن أهله وذويه وخاصم أهله وذويه تمسكا بدينه فرأى المشركون أن القرآن وقد فرّق بين المرء وأهله لابد أن يكون سحرا لأن ذلك شأن السحر : ﴿ **إنه فكر وقدّر فقتل كيف قدّر ثم قتل كيف قدّر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر** ﴾ (المدثر ١٨–٢٥) كان هذا كيد الوليد بن المغيرة. أما كيد غيره من مشركى قريش فقد جاء بنسبة القرآن إلى الشعر لقد رأوا للقرآن فواصل

تنتهى بها آياته كما رأوا فيه مدحا وذما ووعدا ووعيدا وشيئا من الأغراض التى يرمى إليها الشعر فغرهم ذلك عما فى القرآن من أمور لاتكون فى الشعر كعدم الوزن وكطلب الهداية والدعوة إلى دين الله وما فى القرآن من تشريع ونحوه فانزلقوا إلى نسبة القرآن إلى الشعر علـى الرغم من ذلك. وهكذا نسب المشركون القرآن إلى السحر مرة وإلى الشعر مرة أخرى (١).

كان من اليسير دفع الشبهة الأولى عن القرآن لأن السحر لا يأتى للإصلاح ولا للدعوة ولايكون بلغة واضحة مثل تلك اللغة المعجزة التى نزل بها القرآن ثم إن السحر يفرق ولكن القرآن يوحد والسحر يهدم ولكن القرآن أنشأ عقيدة وشريعة وأقام خير أمة أخرجت للناس مادامت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . كل ذلك كان من أثر القرآن الكريم وقد تم كله فيما لا يتجاوز عمر رجل واحد منهم فلقد كان عمر رضى الله عنه أحد من نصبوا أنفسهم لعداء الدعوة أول الأمر وقد كان عمر نفسه هو الذى تمت الفتوح فى عهده شرقا وغربا. لقد علم ذلك عامتهم كما علمه خاصتهم فانتفى عندهم ما زعمه الوليد من أن القرآن سحر . وأما دعواهم أن القرآن شعر فقد كان دفعها يتطلب معرفة بالفروق العديدة بين القرآن والشعر من حيث الصياغة والأسلوب والأغراض وقد كان خاصتهم يعرفونها أكثر مما يعرفها عامتهم ومن هنا نهض النص القرآنى برفض هذه الدعوى من جهة : **﴿ وما هو بقول شاعر ﴾** (الحاقة ٤١) ونفى صفة الشاعر عن النبى صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى

١ - د/ تمام حسان ، البيان فى روائع القرآن ، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآنى ص ٢٧٣ ، نشر عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م .

من خلال ذم بعض سلوك الشعراء ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ (الشعراء ٢٢٤-٢٢٧) فهم يهيمون فى كل واد يتكسبون بالشعر وهم يقولون مالا يفعلون حين ينسبون إلى أنفسهم مغامرات مع النساء أو بطولات ضد الأعداء لم تقع منهم ولا عرفوا بها. ولم يكن هذا من خلق النبى المعصوم صلى الله عليه وسلم وهو الذى عرف طول عمره بالصادق الأمين (١) .

ونود الآن أن نذكر الفرق بين الفاصلة القرآنية والقافية الشعرية . لقد تعود العربى أن ينظر إلى شطرات قصيدته فيجعلها أزواجا كل زوج منها بيت . والبيت عند العربى فى الحقيقة خباء أو خيمة ، فكأن القصيدة كانت فى نظر الشاعر أشبه بمضرب من مضارب الخيام. وإذا كان للخيمة عمود فلا بد لبيت الشعر أن يقوم على عمود ولكن العمود نسب إلى الجنس ليعم كل أفراده فقيل : « عمود الشعر » وكما تسقط الخيمة بإزالة عمودها ينهار البيت أو القصيدة عند عدم رعاية عمود الشعر. ولعل من أشهر ما يعد من عمود الشعر الوزن والقافية. أما الوزن فقد مضى القول فى الفرق بينه وبين الايقاع القرآنى وأما القافية فهنا مجال التفريق بينها وبين الفاصلة .

إن تقفية الشعر تعنى تطابق خواتيم الأبيات من الناحية الصوتية . وقد جعل الالتزام بالقافية جزءا من عمود الشعر الذى لايكون الشعر شعرا

---

١ - المرجع اسابق ص ٢٧٤ .

إلا به – وفى القرآن من الفواصل ما يتشابه جرسه فى الأذن ولا يتطابق بالضرورة فى الحرف . فحين سمع المشركون هذه الفواصل ولمحوا تشابه أجراسها غرتهم عن ملكاتهم وأذواقهم فربطوا بينها بالباطل وبين تقفية الشعر ثم ادعوا لأدنى ملابسة أن القرآن قول شاعر ومن هنا جاء الرد القرآنى عليهم ليقول لهم : ﴿ **وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون** ﴾ (الحاقة ٤١) إن من يتأمل الفاصلة القرآنية ليجد الفارق كبيرا بينها وبين قوافى الشعر (١) .

ومن يقرأ كتاب الله عز وجل من أوله إلى آخره يجد أنه لم تخل سورة من سور القرآن من الفواصل التى هى كالأسجاع حتى ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وسورة الكوثر وغيرها ، وهذه الفواصل القرآنية تجمع حسن النظم مع عذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وحسن الدلالة فتأتى الفاصلة كالعاقدة للمعانى ... فهى كالبراعم للنباتات، والأكمام للشجر، والبصمة للبنان .

ولما كان القرآن قد نزل بأفصح أساليب الكلام العربى فقد جاءت فواصل الآيات بإزاء ورود الأسجاع فى كلامهم ، ولكنه لم يجىء كله على أسلوب واحد، لأنه لايحسن فى الكلام جميعا أن يكون مستمرا على نمط واحد، ولهذا نجد التنوع فى الفواصل على مدار السور كما نجد التنوع فى الفواصل أيضا داخل بعض السور، وهذا التنوع يأتى لغرض إتمام المعانى بحسب ما يقتضيه السياق فى الآية وليس لإتمام التسجيع ولهذا قلنا إن الفاصلة تكون كالعاقدة للمعانى أى أنها تجمع

---

١ - المرجع السابق ص ٢٧٥ .

المعنى لما قد سبقها من الكلام فى الآية إذ ليس الغرض الأساسى منها تقفية السجع، ولذلك نجد الآيات فى سورة البقرة مثلا تنتهى فواصلها بحرف من حروف المدمع النون أو المدمع الميم فى الأغلب الأعم لكن تتخللهاآيات بالمدمع الراء أو المدمع الدال أو المدمع اللام أو المدمع الياء ، إذ المعنى هو المقصود ، فلا تكون زينة الكلام بالسجع على حساب المعنى ، فليس فى تقفية الفواصل فى القرآن تكلف ،لهذا وردت بعض آى القرآن متماثلة المقاطع وبعضها غير متماثل . فالفاصلة تأتى متناسبة مع المعنى تماما بحيث لايستطيع إنسان مهما أوتى من الفصاحةوالبيان أن يحركها من مكانها ويأتى بغيرها، وفى هذا إعجاز للبشر جميعا أيما إعجاز .

الفواصل من ضروب الإعجاز البلاغي في القرآن :

يظهر معنى الإعجاز البلاغي للقران في أنه يبدو واضحا في التفوق على كل معاني البلاغة التي تعارف عليها العرب الفصحاء بحيث يستحيل على أحد أن يأتي بمثله أو بما يدانيه، وقد سأل المفضل الضبي أحد الأعراب فقال له : ما البلاغة ؟ قال الأعرابي : « الإيجاز في غير عجز ، و الإطناب في غير خلل » (١)، كما سئل الأحنف : ما البلاغة؟ قال : الإيجاز في استحكام الحجج، والوقوف عند ما يكتفي « به » (٢). ، كما قال خالد بن صفوان: « خير الكلام ما ظرفت معانيه ، وشرفت مبانيه والتذّت به آذان سامعيه » (٣).

مثل هذه الكلمات تدل على مدى الفهم العظيم لدى العرب للغتهم ، وأنهم لما ظهر عجزهم عن محاكاة الآيات التي جاء القرآن بها، قامت الحجة على العالم بالعرب الذين ملكوا أزمّة الفصاحة .

ذكر القاضي عياض في كتابه « الشفاء » أن أعرابيا سمع رجل يقرأ هذه الآية ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ فقال : أشهد أن مخلوقا لايقدر على مثل هذا الكلام.. ذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس، وانفرادهم من غيرهم وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث ، فتضمنت تلك الآية القصيرة معاني القصة

١، ٢، ٣ – ابن عبد البر القرطبي ، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس ، القسم الأول ص ٧١ . بتحقيق محمد مرسي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

الطويلة (١).

وقد حكى العلاّمة القرطبى عن الأصمعى أنه قال :

سمعت جارية أعرابية تنشد :

استغفر الله لذنبى كلـه   قتلت إنسانا بغيـــر حله

مثل الغزال ناعما فى دله   انتصف الليل ولم أصلـه

فقلت : قاتلك الله ما أفصَحَك ؟!

فقالت ويحك أو يُعد هذا فصاحة مع قول الله عز وجل :

﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم، ولاتخافى ولاتحزنى ، إنّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ فقد جمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين (٢) .

« قال الرمّانى : وجوه إعجاز القرآن تظهر من جهات ترك المعارضة، مع توفر الدواعى، وشدة الحاجة، والتحدى للكافة، والصرفة ، والبلاغة، والإخبار عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة. قال : ونقض العادة هو أن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب ، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث؛ فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة ، وتفوق الموزون الذى هو أحسن الكلام. قال : وأما قياسه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة ؛ إذ كان سبيل فلق البحر وقلب العصا حية ، وما

١ - الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٢ ص ٦٦ .

٢ - تفسير القرطبى ١٣/ ٢٥٢ وصفوة التفاسير للصابونى ج ٢ / ٤٢٩ .

جرى هذا المجرى فى ذلك سبيلا واحدا فى الإعجاز، إذ خرج عن العادة، وقعد الخلق فيه عن المعارضة .

وقال القاضى عياض (١) فى الشفاء : اعلم أن القرآن منطوٍ على وجوهٍ من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة وجوه :

أولها : حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام، وأرباب هذا الشأن » (٢).

الثانى : صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب ، المخالف لأساليب كلام العرب، ومنهاج نظمها ونثرها الذى جاء عليه، ووقفت عليه مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصل كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له . قال : وكل واحد من هذين النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها، والأسلوب الغريب بذاته، نوع إعجاز على التحقيق ، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد خارج عن قدرتها ، مباين لفصاحتها وكلامها ، خلافا لمن زعم أن الإعجاز فى مجموع البلاغة والأسلوب .

الثالث : ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات وما لم يكن ، فوُجد كما ورد.

---

١ - هو القاضى عياض بن موسى بن عياض اليحصبى الأندلسى ، صاحب كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وغيره وامام وقته ف بالحديث وعلومه ، توفى سنة ٥٤٤ هـ . الديباج المذهب ١٦٨ .

٢ السيوطى ، الإتقان فى علوم القرآن ج ٤ / ١٨ .

الرابع : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة؛ مما كان لايعلَم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك، فيورده صلى الله عليه وسلم على وجهه ويأتى به على نصّه ؛ وهو أمىّ لايقرأ ولا يكتب.

قال : فهذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لانزاع فيها. ومن الوجوه فى إعجازه غير ذلك آى وردت بتعجيز قوم فى قضايا وإعلامهم أنهم لايفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك ، كقوله لليهود : ﴿ **فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنّوه أبدا** ﴾ (١)، فما تمناه أحد منهم ، وهذا الوجه داخل فى الوجه الثالث .

ومنها الروعة التى تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته ، وقد أسلم جماعة عند سماع آيات منه كما وقع لجَبير بن مطعم أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور، قال : فلما بلغ هذه الآية ﴿ **أم خُلقوا من غير شىء أم هم الخَالقون** ﴾ إلى قوله ﴿ **المُسَيطِرون** ﴾ (٢). كاد قلبى أن يطير . قال : وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبى . وقد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف .

ثم قال : ومن وجوه إعجازه كونه آية باقية ، لايعدم ما بقيت الدنيا؛ مع تكفل الله بحفظه » (٣).

---

١ – البقرة ٩٤ ، ٩٥ .

٢ – الطور ٣٥ – ٣٧ .

٣ – السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ج ٤ / ١٩ .

وقد طرحت قضية الفواصل القرآنية أمام العرب موضوعات جديدة لم يكن لهم بهـا علم من قـبل ، ولم تخطر لهم على بال ذلك أن الفاصلة في حد ذاتها إحكام لما قد سبقها من الكلام فى الآية بخلاف السجعة التى قد يتكلفونها لإظهار البراعة والفصاحة، ثم إن توالى الفواصل بما تحدثه من موسيقى ظاهرة، وبماتقوم به من ربط وإحكام بين الكلام ، وما تضفيه من معان مقصودة سواء على المستوى القريب أم المستوى البعيد، بحيث لايستطيع أحد مهما أوتى من قوة الفصاحة وحسن البيان أن يقترح تغيير لفظة أو زيادة حرف مع أن ذلك جائز فى كلامهم ، كل ذلك أبرز معنى الإعجاز، فتجد جمال الأسلوب وقوة العبارة فى كل آية من آيات القرآن تحكمها الفواصل مسببة جمال الإيقاع الذى يهز الوجدان ويدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى .

كما أن توالى نزول القرآن على مدى الثلاث والعشرين سنة على نمط فريد فى النظم والإحكام والانسجام بين الكلمات والسور شيء كان يبهرهم ويظهر عجزهم أمامه .

من أسرار الإعجاز في الفواصل

١ - المزاوجة بين الفواصل :

قال أبو هلال العسكرى فى كتاب الصناعتين :

لايحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا (١)، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ؛ لأنه فى نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل فى أوساط الآيات فضلا عما تزاوج فى الفواصل منه. كقول الله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ (٢). وقوله عز وجل : ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم ﴾ (٣). وقوله تعالى : ﴿ ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ (٤)وقوله تعالى : ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ﴾ (٥). إلى غير ذلك من الآيات.

وأما ما زووج بينه بالفواصل فهو كثير. مثل قوله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب*وإلى ربك فارغب ﴾ (٦). وقوله سبحانه : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر ﴾ (٧). وقوله عز وجل : ﴿ والعصر* إن الإنسان لفى خسر ﴾ . وقوله جل ذكره . ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا ﴾ (٨)؛ وهذا من المطابقة التى لاتجد فى كلام

---

١ - ج : « إلا أن يكون »
٢ سورج الأنعام ١
٣ - سورة الأعراف ١٠٠
٤ سورة البقره ٢٦٧
٥ - سورة البقرة ٢١
٦ الشرح ٧. ٨
٧ - سورة الضحى ٩، ١٠
٨ سورة النجم ٤٣ ٤٤

الخلق مثلها حسنا ولاشدة اختصار؛ على كثرة المطابقة فى الكلام. وكذلك جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف فى تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمن الطلاوة ... ألا ترى قوله عز اسمه : ﴿ والعاديات ضبحا* فالموريات قدحا* فالمغيرات صبحا * فأثرن به نقعا * فوسطن به جمعا ﴾ قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى ، من مثل قول الكاهن : والسماء والأرض، والقرّض والفرّض ، والغمر والبرْض » (١). ومثل هذا الكلام مذموم لما فيه من التكلف والتعسف (٢) .

ولم يعرّف أبو هلال العسكرى هنا معنى المزاوجة ، واكتفى بالأمثلة التى عرضها ليستشعر القارىء فى نفسه المعنى الذى يذهب إليه والذى أراه أن المزاوجة التى يقصدها هى اتفاق فاصلتين أو أكثر فى الحرف الأخير أو الحرفين الأخيرين . أما المزاوجة عند المتأخرين من البلاغيين فإنها مفهوم آخر غير مفهوم أبى هلال وهو أن يتزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء كقول البحترى :

إذا احتربتْ يوما ففاضت دماؤها   تذكّرتِ القربى ففاضت دموعُها .(٣)

---

١ - والبرْض : القليل وهو خلاف الغَمْر .

٢ - أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥) ، كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر، ص ٢٦٦ ، ص ٢٦٧ ، بتحقيق على محمد البيجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربى « الطبعة الثانية » .

٣ - انظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، لعبد المتعال الصعيدى ج ٤ / ٢٢، طبع مكتبة الآداب ، الطبعة السابقة ١٤١٠-١٩٩٠.

وهذه المزاوجة بين فواصل الآيات أمر لايطيقه بَشَرٌ بحال من الأحوال مهما أوتى من البلاغة والفصاحة . ناهيك عن التلاؤم الحادث بينها وبين الألفاظ فى الايات والتناسب بينها وبين الفواصل المتجانسة معها مع شرف المقاصد والمعانى المطلوبة وسواء كانت تعرض للتشريع أم للقصة أم للأمر والنهى أم للوصف أم للترغيب والترهيب .

واقرأ إن شئت فى ذلك سورة القمر وهى من السور المكية التى عالجت أصول العقيدة الإسلامية فتناولت المعجزة الكونية فى انشقاق القمر، ثم انتقلت إلى الحديث عن أهوال القيامة وشدائدها، ثم الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة، واختتمت بإنذار قريش وحذرتهم مصرعا كهذه المصارع التى لحقت بالكفار الذين كذبوا الرسل بل سيكون لهم ما هو أشد وأنكى ، كل ذلك فى خمس وخمسين آية ، يتحقق فيها السجع الرصين حيث تتفق جميعها فى حرف الراء الساكن مع المزاوجة الرائعة فى مثل قوله تعالى : ﴿ **وكل شىءٍ فعلوه فى الزبر * وكل صغير وكبير مستطر * إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ .

كما نجد سورة الكهف على مدى المائة والعشر آيات التى تضمنتها تلتزم الفواصل فيها الألف المدية فى نهاياتها مع التنوع فى حرف الروى.

وسورة الشمس وما فيها من السجع المرصع حيث تتفق جميع آياتها الخمس عشرة فى أواخر حروفها بالألف المدية ثم الهاء ثم ألف المد أيضا محققة النغم الموسيقى الرائع، مع ما تتضمنه من جلال المعنى حيث يقسم المولى عز وجل بسبع آيات كونية ظاهرة للعيان على أن الفلاح لمن

تزكى والخسران لمن طغى وبغى واتبع نفسه هواها ويقص علينا قصة الناقة كمثال لهذا المعنى ، هذا مع ما فيها من الصبغ البديعى الذى يزيد النغم حلاوة والمعنى طلاوة كالطباق بين الشمس والقمر والليل والنهار وفجورها وتقواها، ثم المقابلة اللطيفة مع المزاوجة بين (والنهار إذا جلاها) ، (والليل إذا يغشاها) وبين (قد أفلح من زكاها) و (قد خاب من دساها) .

ونجد ذلك واضحا جليا أيضا فى سورة الليل التى تحدثنا عن سعى الإنسان وعمله ، وعن كفاحه ونضاله فى هذه الحياة ثم نهايته الأكيدة إلى النعيم أو إلى الجحيم حيث تتبدى لنا فى فواصل آياتها الإحدى والعشرين والتى تتفق جميعها فى الاختتام بالألف المدية أو القراءة مع الإمالة ، والمزاوجة فى الآيات :

مثل (والليل إذا يغشى) و (والنهار إذا تجلى)

ومثل (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى)

(وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

٢ - تناسب الفواصل :

نجد دائما فى كل فاصلة من فواصل الآيات أن يختم الكلام بما يتناسب مع أوله فى المعنى* .. كقوله تعالى ﴿ **لا تُدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ (١). فقد ختمت الآية بما يناسب أولها، إذ « اللطيف » يلائم « لاتدركه» الأبصار، و « الخبير» يلائم « وهو يدرك الأبصار» ، لأن من يدرك الشيء يكون خبيرا به .. ومنه قوله تعالى : ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد** ﴾ (٢) . ، فإن الذى يملك ما فى السموات وما فى الأرض يكون غنيا عن كل ما عداه، ولما كان ما فى السموات وما فى الأرض مخلوقا لمنفعة العباد، كان الخالق المنعم مستحقا للحمد من المنعم عليهم ..ومنه قوله تعالى : ﴿ **ألم ترَ أن الله سخّر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ (٣)، لأن الذى أنعم هذا الإنعام سخر ما فى الأرض، ومن يفعل ذلك يكون رءوفا رحيما بعباده.. ومما يروى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ قول الله عزّ وجلّ : ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعْلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ (٤)، فوضع القارىء: « غفور رحيم » مكان : « عزيز حكيم» قائلا : « فاعلموا أن الله غفور رحيم » ، فقال الأعرابى، ولم يكن يقرأ القرآن : إن كان هذا كلام الله فلا، الحكيم لايذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه.

---

* راجع كتاب علم البديع للدكتور بسيونى عبد الفتاح بسيونى .

١- سورة الأنعام آية ١٠٣ .

٢ - سورة الحج آية ٦٤ .

٣ - سورة الحج آية ٦٥ .

٤ - سورة البقرة آية ٢٠٩ .

فختام الآية بالعزة والحكمة يناسب ذكر الزلل بعد وضوح الحق وتبيينه ... وروى أن الرسول ﷺ ، كان يملى على زيد بن ثابت قوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثمْ جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ (١)وهنا قال أحد الصحابة: « فتبارك الله »، فابتسم النبى ﷺ ثم قال : « بها ختمت» وختام الآية الكريمة ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ .. وورد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ قوله تعالى : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودُسرٍ تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كُفِر﴾ (٢)، فقرأها القارىء بفتح الكاف، فقال الأعرابى: لايكون ، فلمّا قرأها القارىء بضم الكاف وكسر الفاء قال الأعرابى : يكون ..

« هذا وقد يكون التناسب بين ختام الآية وبين ما ذكر فى أولها دقيقا خفيا، لايدرك إلا بالتأمل وإطالة النظر، على نحو مانرى فى قوله تعالى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٣) فإن قوله : « وإن تغفر لهم» ، يوهم أن الفاصلة « الغفور الرحيم» ، ولكن عند التأمل وإمعان النظر يتضح أن الفاصلة ينبغى أن تكون ما عليه النظم الكريم لأنه لايقدر على تعذيب من يشاء، والغفران لمن يشاء من عباده إلاّ العزيز الذى لايغالب، وهو عندما يفعل ذلك ففى

---

١ - سورة المؤمنون آية ١٤ .

١ - سورة القمر آية ١٣ ، ١٤ .

٢ - سورة المائدة ١١٨ .

فعله الحكمة وإن خفيت تلك الحكمة على بعض خلقه لأن الحكيم من يضع الشيء في محله، والله تعالى كذلك إلا أنه قد يخفى وجه الحكمة في بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة فكان الوصف بالحكيم احتراس حسن، فالمناسب إذاً هو أن تختم الآية بما ختمت به » (١) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون. هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم**﴾ (٢) « فالمتبادر إلى الذهن أن تختتم الآية بالقدرة: « وهو على كل شيء قدير » ، ولكن عند تأمل النص الكريم وإمعان النظر في سياقه يظهر ويتضح أن المناسب هو ما ختمت به الآية « وهو بكل شيء عليم » لأن تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوى والسفلى وغير ذلك من الإحياء والإماتة ثم الإحياء، كل هذا يدل على صدور تلك الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء...(٣) وكذا القول في قوله تعالى : ﴿ **لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير**﴾ (٤)، فإن النظرة العجلى في الآية الثانية توهم أن تكون الفاصلة « وهو بكل شيء

١ - راجع د. بسيونى عبد الفتاح بسيونى ، علم البديع، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٣٤ .

٢ - سورة البقرة ٣٨ ، ٣٩ .

٣ - انظر البحر المحيط ، ج ١ / ١٢٦ .

٤ - سورة آل عمران ٢٨ ، ٢٩ .

عليم »، ولكن بإمعان النظر وإطالة التأمل فى سياق النظم الكريم يتضح أن المناسب هو ختم الآية بالقدرة ، فاتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين لايكون إلا بزعم المتخذ أن الكافر يملك ويقدر على مالا يقدر عليه المؤمن من نفع، ولذا حذّر الله من يفعل ذلك من المؤمنين وبيّن لهم أن إليه مصيرهم، وأنه عليم بهم وبما يخفون ويبدون بل هو عليم بما فى السموات وما فى الأرض وهو وحده القادر على تحقيق النفع لهم، فينبغى على المؤمن أن يلجأ إلى قدرته تعالى وأن يستظهر بها، وألا يوالى أعداءه الكافرين ، إذ لاقدرة لهم على نصره، وإنما القادر هو الله... وبهذا يتضح أن ختم الآية بالقدرة : « والله على كل شيء قدير» هو المناسب لسياق النظم الكريم ... إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تدق فيها المناسبة ، وتخفى على النظرة العجلى ، وتحتاج إلى إطالة التأمل وإمعان النظر (١).

---

١ - راجع ، د بسيونى عبد الفتاح ، علم البديع، دراسة تاريخية وفنية ص ٣٥ .

٣ - التمهيد للفواصل بألفاظ تمهد لوقوعها :

وذلك يسميه أهل البلاغة برد الأعجاز على الصدور وقد قسمه ابن المعتز ثلاثة أقسام : (١)

(أ) توافق آخر الفاصلة ، وآخر كلمة فى صدر ما قبلها، ومثّل له بقوله تعالى ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾ (٢)، ﴿ **أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا** ﴾ (٣) ، ﴿ **قل الله أسرع مكراً ، إن رسلنا يكتبون ما تمكرون** ﴾ (٤).

(ب) توافق الفاصلة ، وبعض كلمات الصدر فى الوسط نحو قوله تعالى : ﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك . فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ (٥) ، ﴿ **انظر كيف (٦) فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً** ﴾ .

(جـ) توافق الفاصلة وأول كلمة فى صدر ما قبلها ﴿ **وهب لنا (٧) من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب** ﴾ ، ﴿ **قال انى لعملكم من القالين (٨)** ﴾ ولا خفاء فى أن هذه الآيات صدورا وأعجازا - فوق ما تحتمل من معانى التقرير والجزم - تترقرق فيها موسيقى عذبة مطردة

---

١ - د/ أحمد فتحى عامر، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ، ص ٢١٧ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة القرآن والسنة القاهرة ١٣٩٥ - ١٩٧٥ .

٢ - سورة البقرة آية ١٦ .

٣ - سورة النساء اية ١٦٦ .

٤ - سورة يونس آية ٢١

٥ - سورة الأنعام آية ١٠ .

٦ - سورة الإسراء آية ٢١ .

٧ - سورة آل عمران آية ٨ .

٨ - سورة الشعراء آية ١٦٨ .

يأخذ بعضها بحجزبعض ، حتى إذا بلغت مداها بالفواصل ، وقعت على قرار مكين أضفى على سامعه دعة ونشوة وبشاشة كان يتطلبها، ويترقبها، فلم تخلف ظنه فيها . » (١)

---

٩ - د/ أحمد فتحي عامر ، فكرة النظم .. ص ٢١٧ .

٤ - تكرير الفواصل فى بعض السور :

نحو قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ فى سورة الرحمن ، و ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ فى سورة المرسلات .

وقد كررت ﴿ فبأى آلاء ... ﴾ لأن الله - سبحانه - عَدَّدَ فى السورة نعماءه وذكَّر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرها، وقدرته عليها، ولطفه فيها وجعلها فاصلة بين كل نعمة، ليعرف موضع ما أسداه إليهم منها ثم فيها - إلى ذلك - معنى التقريع والتوبيخ ، فإن تعديد الآلاء من الرحمن تبكيت لمن أنكرها، كما يبكت من ينكر أيادى الناس عليه، بتعديد النعم له .

ونضيف إلى ما سبق أن سورة الرحمن على اعتبار أنها من السور المدنية قد خرجت عن طابع الأسلوب المدنى الهادىء النفس ، الطويل الآيات الذى يقرر ويشرع ، ويضع المبادىء الصالحة للزمان والمكان وخروجها عن طابع الأسلوب المدنى بخصائصه التى ذكرت لتخاطب الإنسانية فى مداها الطويل حتى تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

فالإلحاد سيظل ثابت الدعائم على هذه الأرض ، ولابد له من زاجر يزجره، ومدى ينتهى إليه، فكانت سورة الرحمن المدنية على هذا النمط الموسيقى الخالد آية تبصرة تحد من سيطرة المادية البشعة وصراطا للترغيب والترهيب .(١) »

كما نجد التكرار أيضا فى الآية ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ فى سورة

---

١ - د/ أحمد فتحى عامر، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ، ص ٢١٨ .

المرسلات المكية حيث تبدأ بعاصفة مزمجرة وتقسم قسما غليظا على أن ما يوعد به الكفار حائق بهم لامحالة، ثم تذكر اليوم الآخر وفيه تطمس النجوم، وتفرج السماء، وتنسف الجبال ، والهلاك كله لهؤلاء الذين كذبوا باليوم الآخر وما فيه ، وتظل على هذا النمط ، تهدد وتتوعد وتضرب الأمثال للكاذبين بمن سبقهم من المهلكين، وتقف عند كل موقف، لتختمه به : « ويل يومئذ للمكذبين » فإذا تعرضت لموقف المؤمنين وجزائهم فى الآخرة، حيث الظلال والعيون، وفواكه مما يشتهون، والشرب الهنىء ، والجزاء العظيم، قفل الموقف بقوله « ويل يومئذ للمكذبين » ثم عادت السورة أدراجها للحديث عن الكافرين فى تسلسل موسيقى عنيف، يصخ آذان الكفار، ويزلزل خواطرهم ويتركهم فى بحر لجىّ من التفكير فى ذات الله ، فيظل الالحاد فى الإنسانية واقفا عند حد ، لايتجاوزه إلى التغلغل فى أعماقها، وتظل الإنسانية نفسها على حذر من الوقوع فى براثن الشهوانية المادية التى تفتك بسلامة الروح .

« وكأن هاتين الفاصلتين – سورة الرحمن والمرسلات – ولله المثل الأعلى ، قفلة توضيحية، أو قافية شعرية إضافية تريح نفس القارىء من البهر، وترشده إلى إجادة الوقف وتلوين الصوت .

ثم هما تحكمان الربط بين الآيات السابقة واللاحقة، وتسوقان أنغامهما المتسلسلة إلى نهاية تتوحد عندها .

ولا شك أن هذه الفاصلة فى صورة الرحمن وهى من السورة المقروءة كثيرا – قد زادت من روعة التلاوة بما خلعت عليها من إيقاع محبب بهيج، وأمدت القرّاء بألوان من التنغيم المؤثر الأخاذ، نراه يستثير مشاعر السامعين ، ويحدوهم - بلا وعى - إلى ترديد هذه الفاصلة مع

القراء فى خشية غامرة وخشوع عميق » (١) .

٥ - الربط الفنى فى الفواصل :

ومن الأسرار العجيبة هذا الإحكام الفنى بين الفواصل ذلك الربط العضوى بين الألفاظ والمعانى ، وهو النسق الذى يلتزمه القرآن فى جميع الآيات ونذكر من أمثلته :

أ - زيادة حرف كهاء السكت :

محافظة على التنغيم الموسيقى وتكاملا للمعنى ، حتى إذا قرأ القارىء ﴿ وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية ﴾

أحسن ذلك التسلسل ، ولم يستشعر نبوا فى كلمة ، أو قلقا فى تعبير ولو فرضنا أن الآية قرئت هكذا : ﴿ وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ماهية ، نار حامية ﴾ لأحس القارىء بثقل فى نطق الآية التى حذفت منها هاء السكت وتعجب من نفسه ! لم كانت الآية هكذا ؟ وليتها لحقتها الهاء والذين يشغلون أنفسهم بدراسة الموسيقى ، وتذوقها يقفون عند حذف الهاء وقفة طويلة ، فإذا ألحقوا الهاء بالآية انحدر النغم فكان شاجيا للأسماع .

ب - تكرار بعض الحروف لغرض الملاءمة :

ومن هنا كررت « لعل » فى قوله تعالى ﴿ لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ (٢) إذ لو لم تكرر لحذفت النون من آخر

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

١ - سورة يوسف الآية ٤٦ .

الفعل وذلك لايتمشى مع النسق ، ولا ينسجم مع بقية الفواصل

جـ - الحذف

وحذفت الياء فى قوله تعالى ﴿ والليل إذا يسر ﴾ لهذا السبب نفسه، واقرأ الآيات متكاملة تدرك هذا السر فى مجال الاعجاز ﴿ **والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر** ﴾ [1] ولو ذكرت الياء لكانت كالنغمة النشاز

د - الجمع بين المجرورات

وجمع بين المجرورات فى قوله ﴿ **ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا** ﴾ [2] لتناسب الآية ما قبلها ومابعدها، ويتم الربط الفنى بالفاصلة حتى تتناسق على صورة واحدة . » [3]

ولم يكن هذا الربط الفنى فى الفواصل على حساب المعنى ، بل كان مقويا إياه مبرزا له، فلم يكن هناك ضعف تأليف فى توالى المجرورات ولاثقل فى النطق ، بل كان هناك تلوين موسيقى تردده من خلاله المعنى ، فالموسيقى فى «لكم» غيرها فى (علينا) غيرها فى (به) وهى متصلة فى ارتفاع وانخفاض . وإذا أمعنا النظر فى المجرور وهو (لاتجدوا) والمجرور الثالث وجدنا أنه ملتصق بـ (تبيعا) وبقى المجرور الثانى (علينا) مستريحا بين صاحبيه

هى عملية بناء هندسى إذن ، كل كلمة فى مكانها لخصيصة

---

١ سورة الفجر من ١ ٥

٢ سورة الإسراء آية ٦٩

٣ د. أحمد فتحى عامر فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم - ص ٢٢

دقيقة تدرك سرها العقول تارة ، وتعجز عنها تارات .

هـ - تأخير ما أصله أن يقدم :

كقوله تعالى ﴿ **فأوجس في نفسه خيفة موسى** [1] ﴾ فتأخير الفاعل على غير ما ترسمه قواعد النحو ، إلا لأمر فنى هو ما يقولون : ان النفس تتشوق لفاعل « أوجس » فإذا جاء بعد أن أخر وقع بموقع » [2].

و - العدول عن صيغة المضى إلى صيغة الاستقبال :

كقوله تعالى ﴿ **ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون** [3] ﴾ حيث لم يقل « وفريقا قتلتم » كما سوّى بينهما فى سورة الأحزاب فقال ﴿ **فريقا تقتلون ، وتأسرون فريقا** [4] ﴾ لأنها رأس آية، يتم بها النسق، ويتكامل المعنى الذى يأخذ سبيله إلى النفس [5].

٦ - رعاية الفواصل : [6]

وشيء آخر نصر على أن نبرزه ، وهو رعاية الفواصل ، التى تتكامل من خلالها المعانى ، وتتجسد ، ونحس فيها الإعجاز فسمو القوالب من سمو المدلولات وسمو المدلولات من سمو القوالب ، والمعنى الشريف هو

---

١ - سورة طه آية ٦٧ .

٢ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ١ ص ٦٠ .

٣ - سورة البقرة آية ٨٧ .

٤ - سورة الأحزاب آية ٢٦ .

٥ - د/ احمد فتحى عامر، فكرة النظم ص ٢٢٣ .

٦ - د/ أحمد فتحى عامر ، فكرة النظم بين وجوه الاعجاز ص ٢٢٠

الذى يلبس اللفظ الشريف كما يقول القدماء، ولو لم تراع الفواصل لحدث الخلل وسأقص عليك الآيات ﴿ **قال : بل ألقوا ، فإذا حبالهم وعصيهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى** ﴾ فلو غير النظم هكذا « قال : بل ألقوا ، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، (فأوجس موسى خيفة فى نفسه) قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى » .

ألا تقف عنده موقف المتردد الذى يكاد يمسك بقلمه ، ليعيد الآية كما أنزلت عليه؟

والفكر والذوق يعينان صاحبهما على بلوغ هذه المنزلة ؛ أخرج ابن أبى حاتم من طريق الشعبى عن زيد بن ثابت ، قال : أملى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية : ﴿ **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا (١) المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ فقال معاذ بن جبل : « فتبارك الله أحسن الخالقين » فضحك رسول الله ، فقال معاذ : مما ضحكت يارسول الله ؟ قال : بها ختمت (٢).

٧ - **تحقيق التناغم والإيقاع المناسب :**

ولوحظ لذلك فى الفواصل :

١ - أنها أكثر ما تختم بحروف المد واللين ، والحاق النون ، وحكمته

---

١ - سورة المؤمنون آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

٢ - السيوطى ، الاتقان ج ٢ / ١٧٠ .

وجود التمكن من التطريب بذلك .

وسيبويه يقول : إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والباء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، وقد جاء في القرآن على أسهل موقف ، وأعذب مقطع .

٢ - حروف الفواصل اما متماثلة ، كقوله تعالى ﴿ والطور وكتاب مسطور في رق منشور، والبيت المعمور ﴾ (١).

أو متقاربة ، كقوله سبحانه ﴿ الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ﴾ (٢)،﴿ ق. والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ (٣).

وبناء الفواصل على هذه الحروف التي تنبض بالتطريب والغنّة ، ثم برعاية التماثل والتقارب بينهااستكملت أداة الغناء وتم لها الايقاع من غير توقيع، وأصبحت - كما يقول الرافعي (٤) :

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورتان للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا ، يلائم نوع الصوت ، والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب ، ونراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما

١ - سورة الطور آية / ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .
٢ - سورة الفاتحة آية / ٣ ، ٤ .
٣ - سورة ق آية / ١ ، ٢ .
٤ - الرافعي : إعجاز القرآن .

الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها، أو بالمد وهو كذلك طبيعى فى القرار، فإن لم تنته بواحدة من هذه ، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة، وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق ، بماهو أشبه به ، وأليق بموضعه ، وعلى أن ذلك لايكون أكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى . » (١).

ولا تقتصر أسرار الاعجاز فى الفواصل على ما ذكرنا ، فذلك بحر خضم ليس لنا للوصول إلى قراره من سبيل ، وإنما هى أمثلة نسوقها دلائل واضحة على أن السجع أو الفاصلة قالب معجز (٢).

قال الشيخ محمد على الصابونى :

مراعاة الفواصل وهى من خصائص القرآن ﴿ **وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ (ص ٦٢ - ٦٤) . فمثل هذا البيان الرائع والجرس العذب يسرى فى النفس سريان الروح فى الجسد ، وأقسم بالله أننى أشعر بهزة فى نفسى كلما قرأت القرآن لما له من وقع عذب على السمع، وأحيانا أجدنى أتمايل طربا بدون شعور، أكثر مما يتمايل المغرمون بالأنغام وما ذلك إلا لروعة البيان فى هذا القرآن وصدق رسول الله حين قال : « إن من البيان لسحرا » (٣).

١ - د/ أحمد فتحى عامر ، فكرة النظم ، ص ٢١٦ - ٢٢٣ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

٣ - محمد على الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٣ ص ٦٧ .

وبعد ؛ ؛ فإن الفواصل فى القرآن الكريم ذات أهمية عظيمة فى بلاغة القرآن الكريم، فهى محك القدرة، كما أن القافية - وللمولى سبحانه وتعالى المثل الأعلى - محك قدرة الشاعر، ففى بعض الأحيان نجد أن القليل من الشعراء يضطرون إلى القافية اضطراراً ، ليجيئوا بها مكملة للبيت ، ولو ذهبنا نبحث لها عن معنى ، وليس فى فواصل القرآن الكريم فاصلة واحدة جاءت لإكمال الآية إكمالاً معيناً، بل لكل فاصلة سرها البلاغى ، فالبليغ لو رفع كلمة ؛ واحدة من القرآن الكريم؛ وأدار لسان العرب على أن يأتى بأخرى تسد مسدها لأعياه ذلك .

وللقرآن الكريم مسحة خلابة عجيبة ، تتجلى فى نظامه الصوتى ، وجماله اللغوى ، ويرادِ بنظام القرآن الكريم الصوتى اتساق القرآن الكريم، وائتلافه فى حركاته وسكناته، ومدّاته وغنّاته، واتصالاته وسكتاته، اتساقا عجيبا، وائتلافا رائعا، يسترعى الأسماع، ويستهوى النفوس ، بطريقة لايمكن أن يصل إليها أى كلام آخر ، منظوم أو منثور .

ويُراد بجمال القرآن الكريم اللغوى تلك الظاهرة العجيبة التى امتاز بها القرآن الكريم ، فى رصف حروفه، وترتيب كلماته ترتيباً يتضاءل دونه كل ترتيب ونظام، تعاطاه الناس فى كلامهم.

ولقد وصل هذا الجمال اللغوى إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو دخل شيء من كلام الناس فى القرآن الكريم لاعتل مذاقه فى أفواه قارئيه، واختل نظامه فى آذان سامعيه .

ومن عجيب أمر هذا النظام الصوتى ، وذاك الجمال اللغوى ، أنهما كانا دليل إعجاز من ناحية ، وكانا سوراً منيعاً لحفظ القرآن الكريم من ناحية أخرى، ذلك أن من شأن النظام الصوتى، والجمال اللغوى أن

يسترعيا الأسماع، ويثيرا الانتباه، ويحركا داعي الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم .

وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسن الخلق، وفي آذانهم، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم ، فلا يجرؤ أحد على تغييره أو تبديله، وذلك مصداقاً لقول المولى تبارك وتعالى في محكم آياته : ﴿ **إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون** ﴾ الحجر : ٩ .

إن الارتباط بين الفواصل والآيات التي سيقت من أجلها، يدل على مدى التحام الفاصلة بالآية التحاماً تاماً يستقر في النفس ، وتتقبله أعظم قبول .

وقد يُظن في بعض الأحيان أن الآية تهيء لفاصلة بعينها، ولكن القرآن الكريم يأتي بغيرها، إيثاراً لما هو ألصق بالمعنى ، وأشد وفاء بالمراد .

وهذا الارتباط قد يكون واضحاً من أول وهلة ، وقد يحتاج إلى تروّ ودقة وإمعان، ولقد أشار « الفخر الرازي » إلى هذا، حيث قال « ما من حرف، ولا حركة في القرآن الكريم ، إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولاتصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً » (١).

* * *

١ - محمد رجاء حنفي : مقال بعنوان : الفواصل أحد مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم ، ص ٤٧ من مجلة الوعي الإسلامي العدد ٣٨٨ (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م) .

الفصل الثالث

الدرس البلاغي للفواصل القرآنية

وفيــــــه :

- توطئـــــة .

- مستويات الدرس البلاغي للفواصل.

* المستوى اللغوى .

* المستوى الدلالى .

* المستوى الصوتى .

الدرس البلاغى للفواصل القرآنية

توطئـــة :

لقد جاء القرآن الكريم مفصلا بالفواصل ليعجز العرب الذين برعوا فى تزيين الكلام بالأسجاع، وتوشيح العبارات بالكلمات المتماثلة فى النطق المؤدية للمعانى ، فوجدوا فيه ما يبهر الأسماع، ويأخذ بمجامع القلوب، بحيث تتقاصر عن بلوغ معانيه قرائحهم، وتتراجع أمام فواصله بلاغتهم وتتفاوت إزاء حقيقة بيانه أفهامهم، فهو القول الفصل وما هو بالهزل . ولقد صدق ربنا حيث قال : ﴿ **الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علمّه البيان** ﴾ .

فالله هو الذى ألهم الإنسان النطق وميزه ؛ عن سائر الحيوان والعرب اتخذوا من الكلام صناعتهم حيث لم يكن لهم صناعة يبرعون فيها غيره، فكانت المناظرات فى أسواق الكلام يتبارون فيه ويتنافسون فى فنهم هذا ، شعراً كان أم نثرا، لكن أبواب الكلام لم تخرج عن موضوعات بعينها هى ؛ النسيب والحماسة والمديح والهجاء والرثاء والوصف، فلما جاء القرآن وجدوا فيه مالم يألفوه من قبل وإن كان من جنس اللغة التى يتحدثون بها والألفاظ التى يستخدمونها فى كلامهم ، إنه يحدثهم عن البعث والنشور والتوحيد والثواب والعقاب وأخبار الأمم السابقة والجنة والنار، وحقيقة الخلق ، والهداية ، والإحسان والإيمان والعبادة والعلم ، والحلال والحرام ، فانبهرت به عقولهم لما فيه من العلوم والدرر ، وانشرحت له صدورهم لما فيه من الإشراقات الإلهية والفيوضات القدسية والنفحات الربانية .

كما جاءهم النبىّ الأمىّ العربىّ ﷺ بلسان عربىّ مبين منّ الله به عليه ففتح به أعينا عميا ، وآذانا صمّا ، وقلوبا غلفا ، وأخرج به الناس من ظلمات الكفر والوثنية، إلى نور الإيمان والإسلام، وصدع بالقرآن صناديد البلغاء ومصاقيع الخطباء .

إن الله تعالى أوجد بالقرآن أعظم انقلاب فى حياة البشر، فقد أصابت كلماته نفوس العرب حتى صاروا بعد أميتهم وجاهليتهم أساتيذ الأمم وسادة العجم، ونقل عنهم التابعون جيلا بعد جيل ما أثر لديهم من فهمهم للقرآن وظهر علماء فى كل عصر ممن اتصفوا بالبلاغة شرعوا يبينون للناس وجوه أسراره البلاغية ويؤلفون فى ذلك المؤلفات .

ثم « إن الخصائص التى امتاز بها أسلوب القرآن ، والمزايا التى توافرت فيه حتى جعلت له طابعا معجزا فى لغته وبلاغته ، أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر ، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف ، وبعد أن دميت أقدامهم، وحفيت أقلامهم، لم يزيدوا على أن قدموا إلينا قلا من كثر وقطرة من بحر ، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء، وأن ما خفى عليهم فلم يذكروه أكثر مما ظهر لهم فذكروه، وأنهم لم يزيدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين. أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآنى وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذى عنده علم الكتاب . » (١)

والكلام فى وجوه الإعجاز واجب شرعاً وهو من فروض الكفايات لقوله تعالى ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ..** ﴾ فتى

---

١ - محمد عبد العظيم الزرقانى ، مناهل الفرقان ، ج ٢ / ٣٠٩ .

دعوة من الله وأمر منه سبحانه بتفهم القرآن ونهى عن الإعراض عنه، لأنّ التدبر فيه هداية إلى الحق لما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يجسروا على المعاصى .

ولقد وجد علماء النحو وعلماء البلاغة فى الفواصل القرآنية ثروة علمية أدبية وذخيرة فنية بلاغية، فأتاحوا لطلاب العلم دروسا تقرب إلى أفهامهم تذوق بلاغة النظم القرآنى والوقوف على بعض معانى الإعجاز وبعض وجوهه، لأن وجوه الإعجاز فيه لايحيط بها إلاّ الله عز وجلّ فالقرآن لاتنقضى عجائبه، والحقيقة التى لا مراء فيها أن القرآن فَجّر للناس ينابيع كثيرة من العلوم جعلوا ينهلون من فيوضاتها، فمن علوم الصرف إلى النحو وفنون البلاغة إلى علم الأخلاق وإلى علوم الشريعة وعلوم الطب والفلك مما لم يكن لهم بها علم أو معرفة قبل البعثة المحمدية ونزول القرآن الكريم .

ويهمنا من بين هذه العلوم ما نحن بصدده الآن وهو موضوع درس الفواصل القرآنية بلاغيا ، وما قاله العلماء فى شأن هذا الينبوع الفيّاض والروض الأريض .

مستويات الدرس البلاغى للفواصل

ولما كان قد تكلم فى موضوع الفواصل القرآنية كثير من علماء البلاغة فقد جاء كلامهم متفرقا فى تصانيفهم؛ متناثرا فى تآليفهم ، فرأينا أن نجمع بعض ما توافر لنا من كلامهم ونخصص له فصلا مستقلاً، هو هذا الفصل الثالث كى نبين فيه بعض الخصوصيات اللغوية والبديعية للفواصل تحت عنوان « الدرس البلاغى للفواصل القرآنية ».

نعالج فيه الدرس العلمي البلاغي لظاهرة الفواصل ونتناوله على ثلاثة مستويات :ـ

أولا – المستوى اللغوى (المناسبة اللغوية للفاصلة)

ثانيا – المستوى الدلالى (مراعاة الفواصل)

ثالثا – المستوى الصوتى (موسيقى الفواصل)

أولا : المستوى اللغوى (المناسبة اللغوية للفواصل)

« إننا نلاحظ فى كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختيارا يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وذلك فى الألفاظ التى نمر بها على القرون والأجيال ، منذ نزل القرآن إلى اليوم فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره ، ويلائم ذوقه، ويوائم معارفه ، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال ، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة ، وكان ذلك قدحا فى أنه كتاب الدين العام الخالد ، ودستور البشرية فى كل عصر ومصر . فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعاً لحاجات الجميع، وافيا لتجارب الجميع، ملائما لأذواق الجميع، متفقا ومعارف الجميع، مما يدل دلالة واضحة، على أنه كلام الله وحده، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدا . » (١)

نقل الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى فى كتاب الإتقان

١ – محمد عبد العظيم الزرقانى ، مناهل العرفان فى علوم القرآن ، الجزء الثانى ، ص ٣٠٨ ، مطبعة عيسى البابى الحلبى .

فى علوم القرآن ما نصه * :ـ

ألّف الشيخ شمس الدين بن الصائغ كتاباً سمّاه إحكام الراى فى أحكام الآى ، قال فيه (١) :

اعلم أن المناسبة أمر مطلوب فى اللغة العربية ، يرتكب لها أمورٌ من مخالفة الأصول. قال : وقد تتبعت الأحكام التى وقعت فى آخر الآى مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيفٍ عن الأربعين حكماً .

أحـدُها تقديم المعمول :

إما علـى العامل ، نحـو : **﴿ أهـؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾** (٢)، قيل : ومنه : **﴿ وإياك نستعين ﴾** (٣)، **أو على معمول آخر أصله التقديم**، نحو **﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾** (٤)، إذا أعربنا « الكبرى » مفعول « نرى » **أو علـى الفاعل** نحـو : **﴿ ولقد جـاء آل فـرعون النذر ﴾** (٥). ومنه تقديم خبر كان على اسمها ، نحو : **﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾** (٦).

وتقديم المعمول علـى العامل من فوائـده **التخصيـص** « ولذلك يقال فى قوله تعالى **﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾** معناه : نخصك بالعبادة

---

* السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ج ٣ / ٣٢٩ .

١ – إحكام الراى فى أحكام الآى لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنبلى ، المعروف بابن أبى القرس ، المتوفى سنة ٧٧٦ . ذكره فى كشف الظنون .

٢ – سورة سبأ : الآية ٤٠ .

٣ – سورة الفاتحة : الآية ٥ .

٤ – سورة طه : الآية ٢٣ .

٥ – سورة القمر : الآية ٤١ .

٦ – سورة الاخلاص : الآية ٤ .

لا نعبد غيرك ونخصك بالاستعانة لانستعين غيرك .

وفى قوله تعالى : ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (١): معناه إن كنتم تخصونه بالعبادة، وفى قوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسول عليكم شهيدا ﴾ (٢) . أخرت صلة الشهادة فى الأول وقدمت فى الثانى ، لأن الغرض فى الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفى الثانى اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم » (٣) .

وفى قوله تعالى: ﴿ لإلى الله تحشرون ﴾ معناه إليه لا إلى غيره، وفى قوله تعالى : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ - النساء ٧٩ - معناه لجميع الناس من العرب والعجم ، على أن التعريف للاستغراق لا لبعضهم المعيَّن على أنه للعهد أى للعرب ، ولا لمسمى الناس على أنه الجنس لئلا يلزم من الأول اختصاصه بالعرب دون العجم لانحصار الناس فى الصنفين ، ومن الثانى اختصاصه بالإنس دون الجن لانحصار من يتصور الإرسال إليهم من أهل الأرضين فيهما ، وعلى تقدير الاستغراق لايلزم شيء من ذلك لأن التقديم لما كان مفيدا لثبوت الحكم للمقدم ونفيه عما يقابله كان تقديم (للناس) على (رسولا) مفيدا لنفى كونه رسولا لبعضهم خاصة » (٤).

---

١ - سورة البقرة : الآية ١٧٢ .

٢ - سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

٣ - محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزوينى ، الإيضاح لتلخيص المفتاح، شرح عبد المتعال الصعيدى فى كتاب (بغية الايضاح لتلخيص المفتاح) ج ١ / ٢٢٨ - مكتبة الآداب بالقاهرة ، ١٤١٢ - ١٩٩١ .

٤- المصدر السابق ص ٢٢٨ ، ص ٢٢٩

وكذلك يُذْهَبُ في معنى قوله تعالى : ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ – البقرة ٤ – إلى أنه تعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب فيما يقولون « إنه لايدخل الجنة إلاّ من كان هودا أو نصارى » وأنه لاتمسهم النار إلاّ أياما معدودات، وأن أهل الجنة لايتلذذون في الجنة إلاّ بالنسبة والأرواح العبَقَة والسماع اللذيذ » ، ليست الآخرة ؛ وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتي هي الآخرة عند الله في شيء، أي بالآخرة يوقنون لابغيرها . » (١)

ومعظم ذلك أن التقديم لما حقه التأخير إنما يكون للتخصيص وللتناسب كرعاية الفاصلة في مثل (فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾ – طه ٦٧ – وإما لاعتبار آخر مناسب (٢). كما جاء أيضا في سورة طه ﴿ آمنا برب هارون وموسى ﴾ للمحافظة على الفاصلة بخلاف قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ رب موسى وهارون ﴾ (٣) .

الثاني : تقديم ما هو متأخر في الزمان (٤) :

نحو : ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ (٥) ولولا مراعاة الفواصل لقدمت « الأولى » ، كقوله : ﴿ له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ (٦) .

---

١ – المصدر السابق ص ٢٢٩ .

٢ – المصدر السابق ص ٢٣٢ .

٣– المصدر السابق ص ٢٣٥ .

٤– السيوطي ، الاتقان ٣ / ٣٣٩ .

٥ – سورة النجم آية ٢٥ .

٦ – سورة القصص : آية ٧٠ .

« وفى التقديم والتأخير قالوا برعاية الفاصلة فى مثل آية الليل :

﴿ إن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ .

عَدَلَ البيان القرآنى فيما عمَّا هو مألوف ومتبادر من تقديم الأولى على الآخرة .

وليس القصد إلى رعاية الفاصلة هو وحده الذى اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى . وإنما اقتضاه المعنى أولاً ، فى سياق البشرى والوعيد ، إذ الآخرة خير وأبقى ، وعذابها أشد وأخزى .

وبهذا الملحظ البيانى قدمت الآخرة على الأولى فى سياق البشرى للمصطفى عليه الصلاة والسلام بآية الضحى ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ ، كما قدمت الآخرة على الأولى فى سياق الوعيد لفرعون بآية النازعات ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ (١).

الثالث : تقديم الفاضل على الأفضل : (٢)

نحو : ﴿ برب هارون وموسى ﴾ (٣).

وهذا التقديم يقتضيه السياق كما يقتضيه أيضا رعاية الفاصلة ، فأما السياق فلأن الآية بعدها ﴿ قال آمنتم له قبل أنآذن لكم ...﴾ والضمير فى (له) يعود إلى أقرب مذكور، ولهذا لم يقل « برب موسى وهارون » لأن الضمير فى هذه الحالة سوف يعود إلى هارون والمراد موسى ،

١ - د/ عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البيانى ص ٢٧٨ .

٢ - السيوطى ، الاتقان ف يعلوم القرآن ج ٢ / ص ٣٢٩ .

٣ - سورة طه : الآية ٧٠ .

فلهذا كان لابد لإقامة السياق من الترتيب الذى عليه الآية (برب هارون وموسى) ، وأما الفاصلة - فلأنَّ رؤوس الآيات فى السورة جاءت فى الأغلب الأعم بألف المد المقصورة أو الممدودة . فجاءت مناسبة لها .

الرابع : تقديم الضمير على ما يفسّره .

نحو ﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾ [1] .

لأن تقديم (فى نفسه) على (خيفة) لو أخر عنه لتوهم القارىء تعلقه به لا بقوله (فأوجس) وهو المقصود [2]. وإنما قدّم الجار والمجرور على المفعول - وإن كان حق المفعول التقديم عليه - لأنه تقديم يفهم حصر الخيفة فى نفسه) [3].

وتأخير (موسى) جاءت لرعاية الفاصلة بتقديم الجار والمجرور والمفعول على الفاعل لأن الفاصلة فى الآية ألفية [4] .

وهذا كما فى قوله فى سورة الذاريات : ﴿ فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف ﴾ أى فأضمر فى نفسه الخوف منهم .

وكما فى قوله فى سورة هود : ﴿ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة .. ﴾ أى أحس منهم الخوف والفزع .

الخامس : تقديم الصفة الجملة على الصفة المفردة : [5]

---

١ - سورة طه : الآية ٦٧ .

٢ - السيوطى ، الاتقان ٣/ ٣٤٠ .

٣ - الحسن بن عثمان بن الحسين المفتى ، خلاصة المعانى ، ص ٢١٨ ، دار الاعتصام بتحقيق ودراسة د/ عبد القادر حسين طبعة سنة ١٩٩٣ .

٤ - المرجع السابق والصفحة .

٥ - السيوطى ، الاتقان ٣ / ٣٤٠

نحو : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ – الإسراء آية ١٣ –

فلو كان التقديم للصفة منشورا قبل (يلقاه) وهى هنا جملة نعت فى محل نصب لفسدت رعاية الفاصلة ولذلك قدمها رعاية لمناسبة الفواصل .

السادس : حذف ياء المنقوص المعرّف : (١)

نحو ﴿ الكبير المتعال ﴾ – الرعد آية ٩ –

ونحو ﴿ يوم التناد ﴾ – غافر آية ٣٢ –

السابع : حذف ياء الفعل غير المجزوم : (٢)

نحو ﴿ والليل إذا يسر ﴾ – الفجر ٤ –

الثامن : حذف ياء الإضافة : (٣)

نحو ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ ، – القمر آية ١٦ –

ونحو ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ – الرعد آية ٣٢ –

التاسع : زيادة حرف المد : (٤)

نحو : ﴿ الظنونا ﴾ ، و ﴿ الرسولا ﴾ ، ﴿ السبيلا ﴾ .

ومنه إبقاؤه مع الجازم ، نحو :

﴿ لاتخاف دركا ولا تخشى ﴾ – طه ٧٧ – ، ﴿ سنقرؤك فلا تنسى﴾ – الأعلى ٦– على القول بأنه نهى .

العاشر : صرف مالا ينصرف : (٥)

نحو : ﴿ قواريرا * قواريرا ﴾ – الإنسان ١٥ ، ١٦ –

---

١ ، ٢ ، ٣ – السيوطى ، الاتقان ج ٢ / ٣٤٠ .

٤ ، ٥ – المصدر السابق نفسه والصفحة .

الحادى عشر : إيثار تذكير اسم الجنس : (١)

كقوله : ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ - القمر ٢٠ -

الثانى عشر : إيثار تأنيثه : (٢)

نحو ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ - الحاقة ٧ - .

ونظير هذين قوله فى القمر : ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ - القمر ٥٣ - ، وفى الكهف ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ - الكهف ٤٩ - .

الثالث عشر : الاقتصار على أحد الوجهين الجائزين اللذين قرىء بهما فى السبع فى غير ذلك :

كقوله تعالى : ﴿ فأولئك تحروا رَشَدًا ﴾ (٣) ، ولم يجىء « رشْدا » فى السبع ، وكذا ﴿ وهيىء لنا من أمرنا رشدا ﴾ (٤) ، لأن الفواصل فى السورتين محركة الوسط ، وقد جاء فى ﴿ وإن يروا سبيل الرشد ﴾ (٥) ، ونظير ذلك قراءة ﴿ تبّت يدا أبى لهبٍ وتبّ ﴾ (٦) بفتح الهاء وسكونها ، ولم يقرأ ﴿ سيَصْلَى نارا ذات لهبٍ ﴾ (٧) إلا بالفتح لمراعاة الفاصلة .

الرابع عشر : إيراد الجملة التى رد بها ما قبلها على غير وجه المطابقة فى الإسمية والفعلية :

كقوله تعالى:﴿ ومنَ النـاس من يقـول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ (٨) ، لم يطابق بين قولهم : « آمنا » ، وبين ما،

---

١ ، ٢ - المصدر السابق نفسه والصفحة .

٣ - الجن ١٤ .

٤ - الكهف ١٠ .

٥- الأعراف ١٤٦ .

٦ ، ٧ - المسد ٣

٨ - البقرة ٨ .

ورد به فيقول و « لم يؤمنوا » ، أو « ماآمنوا » لذلك .

الخامس عشر : إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر كذلك :

نحو : ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (١) ولم يقل : « الذين كذبوا » .

السادس عشر : إيراد أحد جزأى الجملتين على غير الوجه الذى أورد نظيرها من الجملة الأخرى :

نحو : ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (٢) .

السابع عشر : إيثار أغرب اللفظتين :

نحو : ﴿ قسمة ضيزى ﴾ (٣) ولم يقل « جائرة » ﴿ لينبذن فى الحطمة ﴾ (٤)، ولم يقل « جهنم » أو النار ، وقال فى المدّثر : ﴿ سأصليه سقر ﴾ (٥)، وفى سأل ﴿ إنها لظى ﴾ (٦)، وفى القارعة ﴿ فأمه هاوية ﴾ (٧) لمراعاة فواصل كل سورة .

الثامن عشر : اختصاص كل من المشتركين بموضع :

نحو : ﴿ وليذكر أولوا الألباب ﴾ (٨)، وفى سورة طه ﴿ إن ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ (٩)

---

١ - العنكبوت ٣ .
٢ - البقرة ١٧٧ .
٣ - النجم ٢٢ .
٤ - الهمزة ٤ .
٥ - المدثر ٢٦ .
٦ - المعارج ١٥ .
٧ - القارعة ٩ .
٨ - إبراهيم ٥٢ .
٩ - طه ١٢٨ .

التاسع عشر : حذف المفعول :

نحو : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ (١)، ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ (٢) . ومه حذف متعلق « أفعل التفضيل » ، نحو : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ (٣)، ﴿ خير وأبقى ﴾ .(٤)

العشرون : الاستغناء بالإفراد عن التثنية :

نحو : ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ (٥).

الحادى والعشرون : الاستغناء به عن الجمع :

نحو : ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ (٦)، ولم يقل : « أئمة »، كما قال : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون ﴾ (٧). ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ﴾ (٨)، أى أنهار .

الثانى والعشرون : الاستغناء التثنية عن الإفراد :

نحو ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (٩)، قال الفرّاء : أراد « جنة » ، كقوله : ﴿ فإن الجنة هى المأوى ﴾ (١٠) ، فثنى لأجل الفاصلة . قال : والقوافى تحتمل من الزيادة والنقصان مالا يحتمله سائر الكلام ، ونظير ذلك فى قول الفرّاء أيضا فى قوله تعالى : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ (١١) فإنهما رجلان : قدار وآخر معه ، ولم يقل « أشقياها »

---

١ - الليل ٥ .
٢ - الضحى ٣ .
٣- طه ٧
٤ - الأعلى ١٧ .
٥ - طه ١١٧ .
٦ - الفرقان ٧٤ .
٧- الأنبياء ٧٣ .
٨ - القمر ٥٤ .
٩ - الرحمن ٤٦ .
١٠ - النازعات ٤١
١١ - الشمس ١٢ .

للفاصلة، وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه، وقال : إنما يجوز فى رءوس الآى زيادة هاء السكت أو الألف أو حذف همزٍ، أو حرفٍ، فأما أن يكون الله وعد بجنتين فيجعلهما جنة واحدة لأجل رءوس الآى ، معاذ الله ! وكيف هذا وهو يصفها بصفات الاثنين ، قال : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ (١)، ثم قال : ﴿ فيهما ﴾ (١)، وأما ابن الصائغ فإنه نقل عن الفرّاء أنه أراد « جنات فأطلق الثنين على الجمع لأجل الفاصلة . ثم قال : وهذا غير بعيد ، قال : وإنما عاد الضمير بعد ذلك بصيغة التثنية مراعاة اللفظ ، وهذا هو الثالث والعشرون .

الرابع والعشرون : والاستغناء بالجمع عن الإفراد :

نحو : ﴿ لابيعٌ فيهِ ولا خلال ﴾ (٢) أى ولا خلة ؛ كما فى الآية الأخرى، وجُمِعَ مراعاة للفاصلة .

الخامس والعشرون : إجراء غير العاقل مجرى العاقل :

نحو : ﴿ رأيتهم لى ساجدين ﴾ (٣)، ﴿ كلٌ فى فلكٍ يسبحون ﴾ (٤).

السادس والعشرون : إمالة مالايمال ، كآى طه والنجم .

السابع والعشرون : الإتيان بصيغة المبالغة ، كقدير وعليم مع ترك ذلك :

فى نحو هو القادر وعالم الغيب ، ومنه ﴿ وما كان ربك نسيًا ﴾ (٨).

---

١ - الرحمن ٤٨ ، ٥٠ .

٢ - ابراهيم ٣١ .　　　٣ - يوسف ٤ .

٤- الأنبياء ٣٣ .　　　٥ - مريم ٦٤ .

الثامن والعشرون : إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض :

نحو : ﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ (١) ، أوثر على « عجيب » لذلك .

التاسع والعشرون : الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه :

نحو : ﴿ ولولا كلمةٌ سبقت من ربك لكان لزاما وأجلٌ مسمىً ﴾ (٢).

الثلاثون : إيقاع الظاهر. موضع المضمر :

نحو : ﴿ والذين يُمَسِّكُون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيع أجر المصلحين ﴾ (٣)، وكذا آية الكهف (*) . (.. إنّا لانُضيع أجْرَ مَنْ أحسَنَ عملا) .

الحادى والثلاثون : وقوع « مفعول » موقع « فاعل » :

كقوله : ﴿ حجابا مستورا ﴾ (٤)، ﴿ كان وعده مأتيا ﴾ (٥)، أى ساترا وآتيا .

الثانى والثلاثون : وقوع « فاعل » موقع « مفعول » :

نحو : ﴿ فى عيشة راضية ﴾ (٦) ، ﴿ من ماء دافق ﴾ (٧).

الثالث والثلاثون : الفصل بين الموصوف والصفة :

نحو : ﴿ أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى ﴾ (٨) إن أعرب

---

١ - ص ٥ .
٢ - طه ١٢٩ .
٣ - الأعراف ١٧٠ .
٤ - الاسراء ٤٥ .
٥ - مريم ٦١ .
٦ - الحاقة ٢١ .
٧ - الطارق ٦ .
٨ - الأعلى ٤ ، ٥ .

* وهى الآية ٣٠ من سورة الكهف .

«أحوى» صفة «المرعى» ، أى حالا .

الرابع والثلاثون : إيقاع حرف مكان غيره :

نحو : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [1] والأصل «إليها» .

الخامس والثلاثون : تأخير الوصف غير الأبلغ ، ومنه :

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ، ﴿ رءوف رحيم ﴾ [2] ؛ لأن الرأفة أبلغ من الرحمة .

السادس والثلاثون : حذف الفاعل ونيابة المفعول :

نحو : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ [3] .

السابع والثلاثون : إثبات هاء السكت :

نحو : ﴿ ماليهْ ﴾ [4] ﴿ سلطانيه ﴾ [5] ، ﴿ ماهيه ﴾ [6] .

الثامن والثلاثون : الجمع بين المجرورات :

نحو : ﴿ ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ ، فإن الأحسن الفصل بينها ، إلا أن مراعاة الفاصلة اقتضت عدمه وتأخير «تبيعا» .

التاسع والثلاثون : العدول عن صيغة المضىّ إلى صيغة الاستقبال :

---

١ - الزلزلة ٥ .

٢ - التوبة ١٢٨ .　　٣ - الليل ١٩ .

٤ ، ٥ - سورة الحاقة ٢٨ ، ٢٩ 　　٦ - سورة القارعة آية ١٠ .

﴿ ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ﴾ (١) ، والأصل « قتلتم » .

الأربعون : تغيير بنية الكلمة :

نحو : ﴿ وطور سينين ﴾ (٢)، والأصل « سينا » .

تنبيـــــه

قـال ابن الصائغ لايمتنع فى توجيه الخروج عن الأصل فى الآيات المذكورة أمور أخـرى مع وجـه المناسبة ، فإن القرآن العظيم - كما جاء فى الأثر - « لاتنقضى عجائبه » . (٣)

ونضيف إلى ما سبق أيضا ما نسميه نحن « غرائب الفواصل » ، وهو من غريب القرآن يقول الإمام أبو سليمان حمد بن محمد الخطابى البستى « الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد من الفهم ، كما أن الغريب من الناس هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل؛ والغريب من الكلام يقال به على وجهين : أحدهما أنه يراد به أنه بعيد المعنى غامضه ، لايتناوله الفهم إلاّ عن بعد ومعاناة فكر، والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها » .. وروى عن أبى هريرة مرفوعا (أعربوا القرآن ، والتمسوا غرائبه) (٤) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ - عبس ٣١ - قال

---

١ - البقرة ٨٧ .　　　　٢ - التين آية ٢ .

٣ - السيوطى ؛ الاتقان ج ٣ / ٣٤٥ .

٤ - أبو عبيد الهروى ؛ كتاب الغريبين، ج ١ / ٩ .

به تسميم الأبّ : المرعى . وقال غيره : الأبّ : هو للبهائم كالفاكهة للناس .

وقال شمر : الأبّ : مرعى السوائم وأنشد : (١)

فأنزلتَ ماءً من المعصرات

فأنبت أبا وغُلْبَ الشجرْ

وكما في قوله تعالى : ﴿ أبابيل ﴾ أي جماعات متفرقة .

وكما في قوله تعالى: ﴿ ضيزى ﴾ أي جائرة .

- قال الرافعي : وفي القرآن ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد أنها منكرة أو نافرة أو شاذة ، فإن القرآن منزه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة ها هنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل ، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس (٢) .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد مما سبق بيانه في مناسبة الفاصلة أن نورد رأي الدكتورة عائشة عبد الرحمن التي سجلته في كتابها (الإعجاز البياني) للرد على من قال بأن الفواصل القرآنية إنما يراعى فيها تناسب الفواصل فحسب وهي لذلك يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول ، حيث هاجمت هذا الرأي وأوضحت أنه مامن فاصلة قرآنية إلا ولها دلالة معنوية أخرى غير التناسب ولفظها في السياق لايؤدي معناه لفظ سواه إذ البلاغة من حيث هي فن القول لا تفصل بين جوهر المعنى

---

١ - المرجع السابق ، ج ١ ص ٧ .

٢ - مصطفى صادق الرافعي ، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٥٦ دار المنار بالقاهرة ، ومكتبة فياض بالمنصورة - الطبعة الأولى ١٤١٧ - ١٩٩٧ .

وبينى أسلوب الأداء .. تقول :

« يكون من المجدى فى القضية ، أن نتدبر شكلية للرونق اللفظى ، أو أن فواصله تأتى لمقتضيات معنوية، مع نسق الإيقاع بهذه الفواصل، وائتلاف الجرس لألفاظها التى اقتضتها المعانى على نحو تتقاصر دونه بلاغة البلغاء ؟

وأختار هنا شواهد من الفواصل التى مال « الفرّاء » ومن ذهب مذهبه، إلى حملها على قصد المشاكلة اللفظية بين رءوس الآيات ، بإيثار نسق على آخر ، أو العدول عن لفظ إلى غيره فى معناه . دون أن يحتاطوا لدفع وهم الإطلاق ،والتعميم، بذكر المقتضى المعنوى للفواصل المرعية .

ننظر ، مثلا، فى هذه الفواصل القرآنية :

﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى ﴾ .

ذهب « الفرّاء » إلى أن القرآن جرى فيها على طرح كاف الخطاب من : قلاك ، اكتفاء بالكاف الأولى – فى ودعك – ولمشاكلة رءوس الآيات [1] .

وعد « الفخر الرازى » من وجوه حذف الكاف رعاية الفاصلة [2] .

ومثله « النيسابورى » فى تفسيره لآيات الضحى[3] ، ونظائرها .

ولو كان البيان القرآنى يتعلق بهذا الملحظ اللفظى فحسب ، لما

---

١ – د/ عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البيانى ، ص ٢٦٨ .

٢ – التفسير الكبير، للرازى : جـ ٨ سورة الضحى .

٣ – على هامش تفسير الطبرى . ط مصر .

عدل عن رعاية الفاصلة فى الآيات بعدها :

﴿ فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

وليس فى الصورة كلها « ثاء » فاصلة .

بل ليس فيها حرف ثاء ، على الإطلاق .

وعلى مذهبهم ، كانت الفواصل تراعى بمثل لفظ : فخبِّر، لمشاكلة رءوس الآيات بالعدول إلى هذا اللفظ ، عن : « فحدث »

ونرى ، والله أعلم ، أن حذف كاف من : « وما قلى » مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف ، هى تحاشى خطابه تعالى رسوله المصطفى ، فى موقف الإيناس ، بصريح القول : وما قلاك .

لما فى القلى من حسّ الطرد والإبعاد وشدة البغض . وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوى فيه يؤذن بأنه لايكون وداع إلا بين الأحباب ، كما لايكون توديع إلا مع رجاء العودة وأمل اللقاء .

وحُذفت كاف الخطاب فى الفواصل بعدها، لأن السياق بعد ذلك أغنى عنها . ومتى أعطى السياق الدلالة المرادة مستغنيا عن الكاف ، فإن ذكرها يكون من الفضول والحشو المنزه عنهما أعلى بيان » (١).

تقول أيضا :(٢)

وآيات الفجر :

﴿ والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر *

١ - د/ عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البيانى ص ٢٦٩ .

٢ - المرجع السابق نفسه والصفحة .

هل في ذلك قسم لذى حجر * ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد ﴾ .

صرح « الفراء » فى (معانى القرآن) بأن ياء العلة حذفت من : يسر (ى) لمشاكلة رءوس الآيات . وكذلك ذهب « ابن سنان الخفاجى» فى (سر الفصاحة) إلى حذفها وحذف ياء المنقوص من : بالواد (ى) قصدا إلى تماثل الفواصل .

لأن القاعدة عندهم ، إثبات ياء العلة ، فى الفعل المضارع المرفوع. وإثبات ياء الاسم المنقوص مجرورا ومرفوعا، إذا اقترن بـ : ال ، أو أضيف.

ويكفى للرد على من ذهبوا إلى حذف الياءين فى آيات الفجر، لرعاية الفاصلة، أن نذكر أن القرآن الكريم لم يقتصر على حذفهما هنا فى مقاطع الآيات، ليسلم لهم القول بأن الحذف قصد إلى رعاية الفواصل وتماثل رءوس الآيات، وإنما حذفت ياء المضارع المرفوع المعتل الآخر، وواوه أيضا، وياء المنقوص مضافا ومعرفا بأل ، فى أواسط الجمل ودرج الكلام ، وقد عقد الإمام « أبو عمرو الدانى » بابا فى ذكر أصول القرّاء الأئمة، فى الياءات المحذوفة من الرسم ومنها فى غير الفواصل (١) :

هود ١٠٥ : ﴿ ويوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾

الإسـراء : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ﴾

---

١ – الدانى : (كتاب التيسير فى القراءات السبع) ٦٩ – ٧١ ط استانبول ١٩٣٠ م .

القمر . ﴿ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾

ق ٤١ : ﴿ واستمع ، يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ .

النازعات ١٦ : ﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾ ومعها القصص ٣٠ ، طه ١٢ .

النمل ١٨ : ﴿ حتى إذا أتو على واد النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون ﴾ .

الروم ٥٣ : ﴿ وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ﴾ .

البقرة ١٨٦ : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى .. ﴾

الصافات ١٦٣ : ﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ .

الرحمن ٢٤ : ﴿ وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام ﴾ .

التكوير ١٥ : ﴿ فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس ﴾ .

ولا مجال لقول فى هذه الآيات ونظائرها ، بحذف ياء المنقوص المضاف أو المعرف بأل ، وآخر المضارع المرفوع المعتل بالوار أو الياء، لرعاية الفواصل ، ومشاكلة رءوس الآيات. وقد يسبق إلى الظن أن الياء والواو حذفتا فيها للتخلص من التقائهما ساكنتين ، بساكن بعدهما ، إلا أن نلتفت إلى آيات هود والبقرة والقمر، والحرف فيها غير متلو بحرف ساكن .

---

١ - الدانى : (كتاب التيسير فى القراءات السبع) ٦٩ - ٧١ ط استانبول ١٩٣٠ م .

أفلا يكون القائلون بالحذف لرعاية الفواصل قد تعجلوا بمثل هذا القول فى آيات الفجر ونظائرها، محتكمين إلى قواعد اللغويين والنحاة فى المعتل الآخر والمنقوص ، حين ينبغى أن نعرض قواعدهم على ما يهدى إليه الاستقراء لكل مواضع الحذف والإثبات فى الكتاب المحكم ؟

* * *

وتستطرد الدكتورة عائشة قائلة :

وآيتا الأعلى :

﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الى خلق فسوى ﴾

والليل : ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى ﴾ .

ليست صيغة « الأعلى » معدولا إليها فيهما عن العلى لمجرد رعاية الفاصلة. ولا أريد بها المفاضلة بين أعلى وعال، على ما وهم بعضهم خضوعا لأحكام اللغويين فى صيغ التفضيل ودلالتها. وقد جر هذا الوهم إلى ما أشار إليه « الفخر الرازى » من تعلق الملاحدة فى « ربه الأعلى » من اقتضاء أن يكون هناك رب آخر مفضولا فى العلو [1]، على ما يقتضى به منطق التفضل عندهم وقواعده.

وذلك من عقم الحسّ فى من يغيب عنه السر البيانى فى إطلاق مثل صيغة الأعلى – والعليا – دون قصد إلى مفاضلة أو ترتيب ، وإنما القصد إلى المضى بالعلو إلى نهايته القصوى بغير حدود ولاقيود .

وهو نفس الملحظ الدلالى لصيغ : الحسنى ، واليسرى ، والعسرى ،

---

١ – التفسير الكبير للرازى : جـ ٨، سورة الليل .

والأشقى، والأتقى ، فى سورة « الليل » دالة على غاية الحسن واليسر والتقوى، وأقصى العسر والشقاء الذى ما بعده من شقاء .

ومثلها صيغة الأكرم فى آية العلق .

﴿ اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم ﴾ .

لم يعدل فيها عن الكريم إلى الأكرم ، لمجرد رعاية الفاصلة ، ولا أقصد بها المفاضلة بين أكرم وكريم ، على ما تأوله مفسرون ، وساقوا وجوها عدة لأكرميته تعالى (١).

واستقراء آياتها ، يشهد بأن صيغتى الأفعل والفعلى، تفيدان الإطلاق إلى أقصى المدى ، بغير حد أو قيد مفاضلة .

إنما تتعين المفاضلة بذكر المفضول ، مضافا إليه أو مجرورا بحرف من ، فى مثل : أكثر الناس ، أكثركم : أكبر من أختها، والفتنة أشد من القتل ، ولا أقل من ذلك ولا أكثر..

ووجه التفضيل فى مثل قوله تعالى : ﴿ والله خير الماكرين ﴾ انه فى سياق الحديث عن مكر المخلوقين : ثمود فى آية (النمل ٥٠) والكافرين من بنى إسرائيل (آل عمران ٥٤) والذين كفروا من قريش (الأنفال ٣٠) .

وقوله تعالى : ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ بآيات يونس ١٠٩ ، والأعراف ٨٧، ويوسف ٣٠ ، ومعها ﴿ أحكم الحاكمين ﴾ فى آيتى هود ٤٥ والتين ٨ .

---

١ - التفسير الكبير للرازى : جـ ٨، سورة العلق .

منظور فيها إلى أن الحكم قد يكون من المخلوقين ومنه فى القرآن الكريم مثل آيات : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ ﴿ وليحكم به ذوا عدل منكم ﴾ ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرب ﴾ ﴿ فاحكم بينهم بالقسط ﴾ ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ .

وأما قوله تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فإذا لم ينظر فيه إلى أن الخلق قد يكون من الناس - و « الراغب » فى المفردات (١) يفرق بين الخلق من الله على غير مثال ، ومن الناس على مثال - فأقرب ما يبدو لنا من وجه فيه ، أن العربية لاتصوغ أفعل وفعلى ، من : خلق فهو خالق . إنما تصوغ الأخلق من معنى : خليق .

والتقييد بوجه مفاضلة ، فى أفعل التفضيل ، إنما يتعين صراحة بالتمييز فى مثل : أكبر شهادة ، أكثر أموالا ، أكثر جمعا ، أكثر شىء جدلا ، أزكى طعاما، أعظم درجة، أهدى سبيل ..

وذلك كله غير الإطلاق بصيغتى : الأفعل ، والفعلى . إلا أن يصرح فى النص بقيد تمييز أو تخصص ومقارنة، كالذى فى آيات :

الكهف ١٠٣ : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

آل عمران ١٨٢ : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾

معها : محمد ٣٥ .

---

١ - مفردات الراغب الأصفهانى فى غريب القرآن مادة (خلق)

الأنفال ٤٢ : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ﴾

الإســـراء ١ : ﴿ سبحـان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ .

فإذا أطلق « الأفعل ، والفعلى » من قيد ومن مفضول ، خرج ، والله أعلم ، عن دلالة المفاضلة وخصوصية القيد ، وأفاد الإطلاق غير المحدود ، فذلك هو قوله تعالى .

﴿ إقرأ وربك الأكرم ﴾ ومثله :

﴿ الآية الكبرى ﴾ فى سورتى النازعات والنجم .

و ﴿ آياتنا الكبرى ﴾ فى سورة طه .

و ﴿ البطشة الكبرى ﴾ فى سورة الدخان .

و ﴿ الطامة الكبرى ﴾ فى سورة النازعات .

و ﴿ النار الكبرى ﴾ فى سورة الأعلى .

و ﴿ المثل الأعلى ﴾ فى سورتى النحل والروم .

وتضيف الدكتورة عائشة : (١)

وآية الرحمن :

﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان * .. ذواتا أفنان ﴾

ليست تثنية جنتين فيها مرادا بها الإفراد وعدل القرآن إليها مراعاة للنظم كما ذهب « الفراء » وإنما السياق قبلها وبعدها على التثنية . وواضح لنا أن المراد بالآية : ولمن خاف مقام ربه ، من الإنس والجان ،

---

١ - د/ عائشة عبد الرحمن ؛ الإعجاز البيانى ، ص ٢٧٤ .

جنتان . ﴿ ذواتا أفنان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

* * *

وتقول أيضا :

وآية التكاثر :

﴿ ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر ﴾

تجد الصنعة البلاغية فيها أن المقابر أوثرت على القبور، للمشاكلة اللفظية بينها وبين التكاثر . ويحس البلاغيون ، ونحس معهم ، نسق الإيقاع بها وانسجام الجرس .

لكن وراء هذا الملحظ البلاغى فى النسق اللفظى ، ملحظا بيانيا اقتضاه المعنى :

فالمقابر جمع مقبرة، وهى مجتمع القبور. واستعمالها هنا هو الملائم معنويا لهذا التكاثر ، دلالة على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون فى حطام الدنيا .. هناك حيث مجتمع الموتى ومحتشد الرم على اختلاف الأعمار والأجيال والطبقات . وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول ، لايمكن أن يقوم بها لفظ القبور جمع قبر .

فبقدرما بين قبر ومقبرة من تفاوت ، يتجلى البيان القرآنى فى إيثار المقابر على القبور، حين يتحدث عن غاية ما يتكاثر فيها المتكاثرون على مر العصور والأجيال ... (١)

---

١ - د/ عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البيانى ، ص ٢٧٤ .

وتقول أيضا :

ومما قالوا فيه برعاية الفاصلة ، آيات الهمزة :

﴿ نار الله الموقدة * التى تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * فى عمد ممددة ﴾ .

على القول بأن الأفئدة فى معنى القلوب ، وعدل إليها للمشالكة بين رءوس الآيات.

ولا تترادف الأفئدة والقلوب فى حس العربية المرهف ، ليقال فيهما برعاية الفاصلة . بل يطلق القلب بدلالة عامة على الجهاز العضوى من أجهزة الجسم ، وعلى موضع الشعور والأهواء والعقيدة والوجدان .

وأما الفؤاد فلا يطلق إلا بدلالة خاصة على المعنوى دون العضوى . ونحن نعرف مثلا جراحة القلب ، وأما جراحة الفؤاد فلا تدخل فى نطاق الطب البشرى . ونحن نأكل القلب كما نأكل الكبد والكلى ، وأما الفؤاد فليس مما يؤكل أو يباع . كما نعرف قلوبا للبشر والحيوان الأعجم على اختلاف فصائله ، وأما الفؤاد فللإنسان لاغير ...

وبهذه الخصوصية فى الدلالة المعنوية للفؤاد ، جاء اللفظ مفردا وجمعا ست عشرة مرة فى القرآن الكريم ، ليس فيها ما يحمل على معنى الجارحة .

والقلب ، وإن جاء فى القرآن فى المعنويات كذلك من الاطمئنان والسكينة والرحمة والتآلف والخشوع والوجل والفقه والطهر، ومع الارتياب والتقلب والخوف والاشمئزاز والقسوة والتكبر والجبروت والزيغ والمرض والإثم والغفلة والعمى، إلا أن العربية ، لغة القرآن ، لاتستعمل

غير القلب فى الدلالة الأصلية على هذا العضو من الجسم .

وإذن يكون لإيثار الأفئدة على القلوب فى آية الهمزة ، مع الملحظ البلاغى من النسق اللفظى والجرس الصوتى، مقتضاه المعنوى البيانى ، فى تخليص الأفئدة من حس العضوية التى يحتملها لفظ القلوب فيما ألف العرب من لغتهم . ولا نزال نستعمل القلب بمعناه العضوى فى التشريح والطب وأصناف اللحوم ، ولا نستعمل الفؤاد بهذه الدلالة على الإطلاق .

وكذلك لا تترادف مؤصدة ومغلقة ، ليقال باحتمال العدول عن أولهما إلى الأخرى رعاية للفاصلة .

بل يتميز الإيصاد بخصوصية الدلالة على إحكام الإغلاق وقوة تحصينه، والعربية استعملت « الوصيد » للبيت الحصين يتخذ من حجارة فى الجبال ، وتقول : استوصد فى الجبل، أى اتخذ فيه حظيرة من حجارة .

وبمثل هذا المعنى من الإيصاد المحكم، جاءت آية البلد :

﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نار مؤصدة ﴾

ولا رعاية فيها لفاصلة لفظية ، بل المعنى من إطباق النار على أصحاب المشأمة وإحكام إيصادها، هو ما تعلق به البيان الأعلى ، والله أعلم .

وفى موضوع التعدية بحروف الجر تقول :

وآية الزلزلة :

﴿ وأخرجت الأرض أثقالها* وقال الإنسان ما لها * يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها ﴾ .

قالوا فيها : « وعدىّ أوحى باللام ، وإن كا المشهور تعديتها بإلى ، لمراعاة الفواصل » (١)

ونستقرىء مواضع فعل الإيحاء في القرآن كله فلا نراه يتعدى بـ « إلى » إلا حين يكون الموحى إليه من الأحياء . يطرد ذلك في كل آيات الإيحاء بإلى ، وعددها سبع وستون آية .

وأما حين يكون الموحى له جمادا ، فالفعل يتعدى باللام كآية الزلزلة ، أو بحرف في، كما في آية فصلت : ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ .

ودلالة « اللام » الإيحاد المباشر على وجه التسخيز، ودلالة « في » البث والملابسة . وأما الإيحاء بـ « إلى » فيأخذ دلالته الخاصة في المصطلح الديني للوحي ، إذا كان الموحى إليه من الأنبياء .

وإلى غير الأنبياء، بشرا أو حيوانا يكون الإيحاء بمعنى الإلهام .

وللجماد بمعنى التسخير، فلا يكون الإيحاء للأرض في آية الزلزلة ، عدولا عن : أوحى إليها ، لمراعاة الفواصل ؛

بل التعدية باللام هنا متعينة، لأن الموحى إليه جماد ، وقد هدى الاستقراء إلى أن القرآن لايعدى الفعل بحرف « إلى » إلا حين يكون الموحى إليه من الأحياء.

---

١ - أبو حيان : البحر المحيط ، ٨ / ٥٠١ الزلزلة .

وفى ظاهرة التقديم والتأخير تقول :

وفى التقديم والتأخير، قالوا برعاية الفاصلة فى مثل آية الليل :

﴿ وإن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ .

عدل البيان القرآنى فيما عما هو مألوف ومتبادر من تقديم الأولى على الآخرة .

وليس القصد إلى رعاية الفاصلة ، هو وحده الذى اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى . وإنما اقتضاهالمعنى أولا ، فى سياق البشرى والوعيد ، إذ الآخرة خير وأبقى ، وعذابهما أكبر وأشد وأخزى ...

وبهذا الملحظ البيانى قدمت الآخرة على الأولى فى سياق البشرى للمصطفى . عليه الصلاة والسلام ، بآية الضحى .

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾

كما قدمت الآخرة على الأولى فى سياق الوعيد لفرعون ، بآية النازعات :

﴿ فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ .

ثم توجز كلامها فيما سبق بقولها :

« مقتضى الإعجاز أنه ما من فاصلة قرآنية لايقتضى لفظها فى سياقه، دلالة معنوية لايؤديها لفظ سواه، قد تتدبره فتهتدى إلى سرّه

البياني وقد يغيب عنا فنقر بالقصور عن إدراكه .

ولا يظن بي أنني أهوّن من قيمة التآلف اللفظي والإيقاع الصوتي لهذا النسق الباهر الذي تجتلي فيه فنية البلاغة، تؤدي المعنى بأرهف لفظ وأروع تعبير وأجمل إيقاع .

فالبلاغة من حيث هي فن القول ، لاتفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها، كما لاتعتد بألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعي .

وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية بدلالتها المعنوية المرهفة ونسقها الفردي في إيقاعها الباهر، وبين ما تقدمه الصنعة البديعية من زخرف لفظي يكره الكلمات على أن تجيء في غير مواضعها » (١) .

---

١ – د/ عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني ، ص ٢٧٨ .

الرد على رأى الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى فهمها لمذهب الفراء :ـ

وجه بعض الأساتذة الباحثين نقدا للدكتورة عائشة عبد الرحمن فيما يختص بمذهب أبى زكريا الفراء ، قال :

« نحن نتفق ابتداء مع الدكتورة عائشة على أن الفواصل القرآنية تابعة للمعانى ولكنا نختلف معها فى فهمها لمذهب الفراء .

ولننظر الآن كيف ردت الدكتورة عائشة على الفراء فى آية الفجر : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ قالت : « صرح الفراء فى (معانى القرآن) بأن ياء العلة حذفت من يسر (ى) لمشاكلة رءوس الآيات، وكذلك ذهب (ابن سنان الخفاجى) إلى حذفها وحذف ياء المنقوص من بالواد (ى) قصدا إلى تماثل الفواصل ، لأن القاعدة عندهم إثبات ياء العلة فى الفعل المضارع المرفوع وإثبات ياء الاسم المنقوص مجرورا ومرفوعا إذا اقترن بأل أو أضيف » (١) .

« ويكفى للرد على من ذهبوا إلى حذف الياء فى آيات الفجر لرعاية الفاصلة أن نلفت إلى أن القرآن الكريم لم يقتصر على حذفهما هنا فى مقاطع الآيات ليسلم لهم القول بأن الحذف قصد إلى رعاية الفواصل وتماثل رءوس الآيات ، وإنما حذفت ياء المضارع المرفوع المعتل الآخر وواوه أيضا وياء المنقوص مضافا ومعرفا بأل فى أواسط الجمل ودرج الكلام كالذى فى الآيات التالية على قراءة حفص (٢).

---

١ - د/ محمود نحلة ، لغة القرآن الكريم فى جزء عم ، دار النهضة العربية بيروت ص ٣٧٧ .

٢ - د/ عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البيانى للقرآن ص ٢٥١ .

ومضت الدكتورة تستشهد ببعض الآيات التى وقع فيها الحذف ، وما استشهدت به بعضه يجوز الاستشهاد به ، وبعضه لايجوز . فمما يجوزُ الاستشهاد به قوله تعالى ﴿ يوم (يأت) لاتكلم نفس إلا بإذنه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يوم يدعو (الداع) إلى شىء نكر ﴾ .

ومما لايجوز قوله تعالى : ﴿ فلما أتاها نودى من شاطىء (الواد) الأيمن ﴾ وقوله : ﴿ حتى إذا أتوا على (واد) النمل ﴾ ، ﴿ وما أنت (بهاد) العمى عن ضلالتهم ﴾ ، ﴿ إلا من هو (صال) الجحيم ، ﴿ وله (الجوار) المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ ، ﴿ فلا أقسم بالخنَّس (الجوار) الكنَّس ﴾ [1]. والاستشهاد بذلك لايجوز، لأن الحذف وقع للتخلص من التقاء الساكنين ولكن الدكتورة عائشة لاتوافق على هذا التعليل قائلة : « وقد يسبق إلى الظن أن الياء والواو حذفتا فيها للتخلص من التقائهما ساكنتين بساكن بعدهما إلا أننا نلفت إلى آيات هود والبقرة والقمر والحرف الأخير فيها غير ملتو بحرف ساكن [2].

وهذا رأى مرفوض ، لأن حذفها فى درج الكلام فى بعض المواضع لا يعنى تعميم الحكم فى كل موضع ، وبخاصة إذا كانت له علة أخرى ظاهرة ومقبولة من الوجهة اللغوية .

على أن شيخنا الفراء لم يغب عنه أن الياء قد تحذف فى درج الكلام تخفيفا ورعاية للنسق الموسيقى ، وأتى على ذلك ببعض الشواهد التى ذكرناها .

---

١ - د/ عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البيانى للقرآن ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

٢ - المرجع اسابق ص ٣٧٨ .

والأمر بعد لايستحق هذا العناء من الدكتورة عائشة ، وأن تحتشد له هذا الاحتشاد ، لأنه لا صلة له بالمعنى من قريب أو من بعيد. فإن حذف الياء أو الواو فى الآيات التى استشهدت بها لا يؤثر فى المعنى بشىء ومن ثم يسقط الاحتجاج بما تقول .

ويرى البحث أنه على الرغم من وجاهة هذا النقد للأستاذ الناقد إلا أن الدكتورة عائشة على حق فى كلامها وربما كان فى تعليلها كثير من الفوائد لاتخفى على القارىء .

ويقول الدكتور تمام حسان فى رعاية الفواصل :

« الفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة مهمة تراعى فى كثير من آيات القرآن ، وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخيره من عناصر الجملة. ولقد يتكلم البلاغيون فى أغراض التقديم والتأخير فيوردون من أسباب ذلك أمورا تدور حول رعاية المعنى ، ربما جعلوا « الاهتمام بمدلول اللفظ » عنوانا يندرج تحته الكثير من هذه الأمور . وهذا أمر لا اعتراض عليه. ولكننى لا أعلم واحدا منهم جعل من أغراض التقديم والتأخير والانتفاع بجرس اللفظ، ربما تركوا ذلك لاهتمامات الشعراء أنفسهم عند اختيارهم للقوافى . أما فى القرآن الكريم فإن أحد الأسباب يمكن أن يوصف بأنه « رعاية الفاصلة » قارن من ذلك ما يلى: - (١)

رتبة أصلية	رتبة مشوشة من أجل الفاصلة
١ - وينفقون مما رزقناهم	« ومما رزقناهم ينفقون » البقرة ٢

---

٢ - تمام حسان ، البيان فى روائع القرآن ص ٢٨٢ .

٢ - وهم يوقنون بالآخرة « وبالآخرة هم يوقنون » البقرة ٤

٣ - وكانوا يظلمون أنفسهم « وأنفسهم كانوا يظلمون» الأعراف ١٧٧

٤ -« فلا يؤمنون إلا قليلا » النساء ٤٦ ، ١٥٥

« فقليلا ما يؤمنون » البقرة ٨٨

لاحظ على وجه الخصوص رقم ٤ فإنك واجد فيه شاهدين من القرآن اشتملا على ألفاظ بعينها اختلفت رتبتها فى أحدهما عنها فى الآخر رعاية للفاصلة وقد يتجاوز التقديم والتأخير رتبة الألفاظ إلى رتبة الأحداث التاريخية، فيتم تشويش تتابع الأحداث لرعاية الفاصلة، كما فى قوله تعالى : « **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما *** ، (النساء ١٦٣ - ١٦٤) ، فانظر كيف تقدم عيسى على سلفه وتقدم سليمان على داود وكيف تقدما معا على موسى رعاية للفاصلة ، بل حتى عند التفصيل المشتمل على شيء من الطباق نجد « ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » (البقرة٨٧) بدلا من « ففريقا كذبتم وفريقا قتلتم » وكذلك « قال سننظر أصدقت أم كنت من االكاذبين » (النمل ٢٧) بدلا من « أم كذبت » وأيضا : « قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون » (النمل ٤١) بدلا من « أم لاتهتدى » أو « أم لا» كل ذلك يشهد على أن الفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة معينة فى القرآن الكريم وهذه الوظيفة جمالية تستحق الرعاية

ولو تعارضت رعايتها مع بعض أنماط التراكيب النحوية (١).

والمعروف أن اللغة العربية أوسع من النحو العربى لأن النحو قواعد أنيط بها تنظيم ما أطرد من اللغة ، ثم يبقى بعد ذلك جزء من اللغة لايخضع لقواعد النحو بسبب عدم اطراده وهو جزء من اللغة يتساوى مع المطرد فى الفصاحة . فمن قواعد الأصول عند النحاة قاعدة تقول: « الشذوذ لاينافى الفصاحة » ، ولقد نزل القرآن بلسان عربى مبين (لابنحو عربى متين) وهكذا امتدت تراكيبه على رحابة اللغة ، ولم تنحبس فى بوتقة القواعد النحوية ، فالقرآن يهيمن على اللغة كلها ما أطرد منها ومالم يطرد. أضف إلى ذلك أن القراءة سنة متبعة، لأن القرآن مروى بلفظه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى تلقاه عن جبريل عليه السلام. وقد رواه الصحابة والتابعون ، ومن تبعهم بالتواتر جمعا عن جمع. وهذا النص المروى ربما تحدى أصول النحاة بالعدول أو تحدى قواعدهم بالترخص ، وقد يكون هذا العدول عن الأصل أو ذلك الترخص فى القاعدة لرعاية الفاصلة. فمن المقرر فى القواعد أن الألف تنوب عن التنوين الذى بعد الفتحة عند الوقف، كما سبق فى قوله تعالى : « فلا يؤمنون إلا قليلا » (النساء ٤٦ - ١٥٥) ، ولأن التنوين الذى نابت عنه الألف لايجتمع مع أداة التعريف (ال) خلت النصوص العربية من الجمع بينهما حتى فى قوافى الشعر، لأن الألف التى تجامع (ال) فى قوافى الشعر ألف إطلاق وليست ألف إبدال أو تعويض. ومع ذلك تأتى ألف الإبدال فى القرآن فى كلمات اقترنت بأداة التعريف ، وكانت

---

١ - المرجع السابق ص ٢٣٨ .

الألف فى هذه الحالة لرعاية الفاصلة ، كما فى قوله تعالى: (١)

١ - « وتظنون بالله الظنونا » (الأحزاب ١٠)

٢ - « ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » (الأحزاب ٦٦)

٣ - « إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا» (الأحزاب ٦٧)

وقد أصاب الدكتور تمام حسان فى هذا التوجيه ، وإن كنّا لانرضى منه لفظ رتبة « مشوشة» عنوانا للتقييم ، وكان من الممكن أن يقول « رتبة النظم » لأن فى التشويش معنى التخليط وهذا لايجوز أن يوصف به نظم القرآن وكان عليه أن يدقق فى معنى التقديم والتأخير الذى يطلبه ويوفق بينه وبين الموجود فى الآية .

رأى خاطئ للدكتور تمام حسان يجب تصحيحه :

للدكتور تمام حسان كلام جميل فى الفاصلة استفدت منه كثيرا فى البحث الماثل بين أيدينا ، لكنه فى تعليله لجمال الفاصلة فى ختم الآية وقع فى خطأ كبير يجدر به أن يستغفر الله منه ، ذلك أنه قد أعجب كثيراً بمراعاة الفواصل وأورد أمثلة لهذه المراعاة كى يؤكد علي أن الفاصلة قيمة صوتية جمالية ترتبط أشد الارتباط بموسيقى النص القرآنى، لكنه جانبه الصواب فى التعليل لما أراد ، قال :

« ولقد تتوالى الفواصل فى آيات متتابعة ومعناها مع تواليها واحد أو متشابه، وإنما توالت على رغم وحدة المعنى لغرض لولاه لأجزأت عن التوالى فاصلة واحدة. من ذلك أن المؤمنين هم بالضرورة موقنون ، لأنهم

---

١ - المرجع السابق ص ٢٨٤ .

لايؤمنون إلا مع رسوخ اليقين بما آمنوا به وهم بالضرورة يعقلون ما أيقنوا بـه، لأن يقينهم لايأتـى إلا نتيجـة تدبر ودلالـة عقليـة، أى «المؤمنون» « يوقنون» « ويعقلون » ومعنى هذه الالفاظ كما يتضح متشابه إلى درجة قرب دلالتها من التوحد، وهذه الالفاظ تتوالى فى موقع الفاصلة فى قوله تعالى « **إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين *وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون *** » (الجاثية ٣ - ٦) ، ففى هذه الآيات القرآنية ذكر لبعض الآيات الكونية التى تدركها الحواس، ومن ثم كان من شأن إدراكها أن يؤدى إلى الإيمان واليقين والاقتناع العقلى ، بأن الإبداع لايكون بلا مبدع . فليس الإدراك الحسى لآيات الكون إلا وسيلة موصلة إلى الحكم العقلى المؤدى إلى اليقين والإيمان . » (١)

ثم يقول فى النهاية :

ومعنى هذا الذى تقدم أن الفاصلة القرآنية لاتدل بالضرورة على تمام المعنى ، ومن ثم تصبح وظيفتها فى القرآن غير نحوية ولا دلالية. فإذا لم يكن للفاصلة غرض نحوى ولا دلالى ، فماذا يكون الغرض منها إذاً ؟ أغلب الظن أن الغرض منها جمالى صرف وإن توافقت أحيانا مع تمام المعنى . فالذى يبدو للوهلة الأولى عند النظر إلى الفاصلة أنها

---

١ - المرجع السابق ص ٢٨٤ .

قيمة صوتية جمالية ترتبط أشد الارتباط بموسيقى النص القرآنى ، كما ارتبط الإيقاع بذلك من قبلها . » (١)

فالكلام من أوله خطأ وفى آخره تأكيد لهذا الخطأ ، إنه يقول فى أوله (لقد تتوالى الفواصل فى آيات متتابعة ومعناها مع تواليها واحد أو متشابه وإنما توالت لغرض لولاه لأجزأت عن التوالى فاصلة واحدة) وهذا استدلال باطل .

فمن قال أن الفواصل المتتابعة فى الآيات التى استشهد بها من سورة الجاثية معناها واحد أو حتى متشابه ؟ هل اليقين هو العقل ؟ وهل العقل هو الإيمان ؟ وهل الإيمان هو اليقين ؟

ثم يُتبع ذلك بقوله (فليس الإدراك الحسى لآيات الكون إلاّ وسيلة موصلة إلى الحكم العقلى المؤدى إلى اليقين والإيمان) . ولو كانت هذه الحقيقة على إطلاقها إذن لأسلم كل كفار العالم من العقلاء وبلغوا بإيمانهم درجة اليقين ! .

ثم يقول : (.. ومعنى هذا الذى تقدم أن الفاصلة لاتدل بالضرورة على تمام المعنى..) فهو قد خالف بهذه العبارة كل علماء البلاغة الذين نزّهوا الفاصلة القرآنية عن السجع ، لأن السجع إما أن يأتى سهلا وتابعاً للمعانى وإما أن يكون متكلفا يتبعه المعنى ، والقرآن لم يرد فيه إلا ما هو من القسم الأول لعلوه فى الفصاحة ، وعلى كلام أستاذنا الدكتور تمام أن الفاصلة لاتدل بالضرورة على تمام المعنى فهى مخالفة صريحة لما فى القرآن من الفواصل لأنها - تبعا لكلامه - يكون فيها تكلف

---

١ - المرجع السابق ص ٢٨٥ .

والقرآن ليس فيه تكلف .(١)

ولقد قال الزمخشري : (لاتحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعانى على سردها ، على المنهج الذى يقتضيه حسن النظم والتئامه ، فأما أن تهمل المعانى ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة ..) (٢)

فهو إذن يخالف الزمخشري ، وغير الزمخشري لأنه جعل الفاصلة وكأنها زائدة يمكن الاستغناء عنها لأن غيرها أدت معناها وإنما هى مستجلبة فقط لإضفاء ناحية صوتية جمالية فحسب مراعاة للفواصل .

ثانيا : المستوى الدلالى

هذا الدرس الدلالى للفواصل القرآنية يدخل تحت موضوع علم البديع ، وأول من اخترع هذا العلم وسماه بهذا الاسم عبد الله بن المعتز سنة أربع وسبعين ومائتين ، وكان قد جمع منه سبعة عشر نوعا وقال :

ما جمع قبلى فنون البديع أحد ولا سبقنى إلى تأليفه مؤلف ومن أراد أن يقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره .

وجمع معاصره قدامة بن جعفر الكاتب عشرين نوعا فى كتابه المعروف (بنقد قدامة) اتفق معه فى سبعة وسلم له ثلاثة عشر ، فكان المجموع ثلاثين إذ ذاك. ثم اقتدى بهما كثير من الفضلاء : أولهم أبو

---

١ - المرجع السابق ص ٢٨٥ .

٢ - الاتقان للسيوطى ج ٣ / ٣٥٩ .

هلال العسكرى ، ثم ابن رشيق القيروانى ، ثم شرف الدين التيفاشى ، ثم جاء من بعدهم الشيخ عبد الغزيز الملقب بالصفى الحلى وقد جمع مائة وواحدا وخمسين نوعا ، ثم جاء بعده الشيخ عز الدين الموصلى وزاد بعض أنواع ، ثم جاء بعده تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى .. ، ثم جاءت بعده الفاضلة عائشة الباعونية ثم تبعهم عبد الغنى النابلسى ، وما زال الفضلاء يؤلفون فى هذا العلم .. مع اختلاف المشارب فى تسمية النوع أو تعريفه .. إلى أن جاوز مائة وستين نوعا » (١) .

ونحن نذكر من هذه الأنواع البديعية الآن أربعة أنواع تختص بها الفواصل القرآنية جمعها الإمام السيوطى فى كتاب « الاتقان » نقلا عن كلام السابقين من علماء البلاغة؛ قال السيوطى :

قال ابن أبى الإصبع : لاتخرج فواصل القرآن عن أحد أربعة أشياء: التمكين ، والتصدير، والتوشيح ، والإيغال (٢) .

أولا : التمكين

فالتمكين – ويسمى ائتلاف القافية – أن يمهد الناثر للقرينة ، أو الشاعر للقافية ، تمهيدا تأتى به القافية أو القرينة متمكنة فى مكانها ، مستقرة فى قرارها مطمئنة فى موضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم، وبحيث لو سكت عنها كمله السامع بطبعه.

---

١ – الشيخ أحمد الحملاوى ، زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع ، ص ١٥٧ (بتصرف) الطبعة السابعة ١٣٩١ – ١٩٧١ – مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

٢ – راجع « السيوطى ، كتاب الاتقان فى علوم القرآن الجزء الثالث ص ٣٤٥ .

ومن أمثلة ذلك ﴿ يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك .. ﴾ (١) الآية، فإنه لما تقدم فى الآية ذكر العبادة ، وتلاه ذكر التصرف فى الأموال، اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب لأن الحلم يناسب العبادات، والرشد يناسب الأموال .

وقوله : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك الآيات أفلا يسمعون ﴾ (٢)، ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء ﴾ إلى قوله : ﴿ أفلا يبصرون﴾ فأتى فى الآية الأولى بـ « يهد لهم »، وختمها بـ « يسمعون » ، لأن الموعظة فيها مسموعة ، وهى أخبار القرون، وفى الثانية بـ « سيروا » ؛ وختمها بـ « يبصرون » لأنها مرئية .

وقوله: ﴿ لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ (٣)

فإن اللطيف يناسب مالا يدرك بالبصر ، والخبير يناسب ما يدركه .

وقوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٤)، فإن فى هذه الفاصلة التمكين

---

١ - هود ٨٧ وبقية الآية (... ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) .

٢ - السجدة ٢٦ ، ٢٧ ، وبقية الآية ٢٧ (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) .

٣ - الأنعام ١٠٣ .

٤ - المؤمنون ١٢ - ١٤ وبقية الآيات (ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين) .

التام المناسب لما قبلها . وقد بادر بعض الصحابة حين نزل أول الآية إلى ختمها بها ، قبل أن يسمع آخرها ؛ فأخرج ابن أبى حاتم من طريق الشعبى ، عن زيد بن ثابت ، قال : أملى علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله :﴿ خلقا آخر﴾ ، قال معاذ بن جبل : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له معاذ : مم ضحكت يارسول الله ؟ قال : بهاختمت !

وحكى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ﴾ (١) « فاعلموا أن الله غفور رحيم » ، ولم يكن يقرأ القرآن فقال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا ، [ومر بهما رجل فقال : كيف تقرأ هذه الآية ؟ فقال الرجل ﴿ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ فقال ، هكذا ينبغى] (٢) ، الحكيم لايذكر الغفران عند الزلل ؛ لأنه إغراء عليه .

تنبيهات *

الأول : قد تجتمع فواصل فى موضع واحد ؛ ويخالف بينها كأوائل النحل فإنه تعالى بدأ بذكر الأفلاك، فقال ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ (٣) ثم ذكر خلق الإنسان من نطفة ، ثم خلق الأنعام ، ثم عجائب النبات ، فقال : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه

---

١ - البقرة ٢٠٩

* السيوطى ؛ الاتقان ج٣ / ٣٤٧

٢ - زيادة من تفسير القرطبى يستقيم بها الكلام .

٣ - النحل آية ٣ .

شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ (١)، فجعل مقطع هذه الآية التفكر؛ لأنه استدلال بحدوث الأنواع المختلفة من النبات على وجود الإله القادر المختار ، ولما كان هنا مظنة سؤال ، وهو أنه لم لايجوز أن يكون المؤثر فيه طبائع الفصول وحركات الشمس والقمر وكان الدليل لايتم إلا بالجواب عن هذا السؤال كان مجال التفكر والنظر والتأمل باقيا ، فأجاب تعالى عنه من وجهين :

أحدهما : أن تغيرات العالم السفلى مربوطة بأحوال حركات الأفلاك، فتلك الحركات كيف حصلت، فإن كان حصولها بسبب أفلاك أخرى لزم التسلسل، وإن كان من الخالق الحكيم ، فذاك إقرار بوجود الإله تعالى ، وهذا هو المراد بقوله **﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾** (٢)، فجعل مقطع هذه الآية العقل ، وكأنه قيل : إن كنت عاقلا ، فاعلم أن التسلسل باطل ، فوجب انتهاء الحركات إلى حركة يكون موجدها غير متحرك ، وهو الإله القادر المختار .

والثاني : أن نسبة الكواكب والطبائع إلى جميع أجزاء الورقة الواحدة والحبة الواحدة واحدة. ثم إنا نرى الورقة الواحدة من الورد أحد وجهيها فى غاية الحمرة، والآخر فى غاية السواد ؛ فلو كان المؤثر موجبا

---

١ - النحل آية ١٠ ، ١١ .

٢ - النحل آية ١٢ .

بالذات لامتنع حصول هذا التفاوت فى الآثار ؛ فعلمنا أن المؤثر قادر مختار، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ (١)، كأنه قيل : اذكر ما ترسخ فى عقلك أن الواجب بالذات والطبع لايختلف تأثيره فإذا انظرت حصول هذا الاختلاف ، علمت أن المؤثر ليس هو الطبائع بل الفاعل المختار ، فلهذا جعل مقطع الآية التذكر .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ... ﴾ (٢)، الآيات ، فإن الأولى ختمت بقوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، والثانية بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، والثالثة بقوله : ﴿لعلكم تتقون ﴾ ، لأن الوصايا التى فى الآية الأولى إنما يحمل على تركها عدم العقل الغالب على الهوى ، لأن الإشراك بالله لعدم استكمال العقل الدال على توحيده وعظمته ، وكذلك عقوق الوالدين لايقتضيه العقل لسبق إحسانهما إلى الولد بكل طريق، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق مع وجود الرازق الحىّ الكريم، وكذلك إتيان

---

١ - النحل ١٣ .

٢ - الأنعام ١٥١ - ١٥٣ . وبقية الآيات :

﴿ ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لانكلف نفسا إلاّ وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

الفواحش لايقتضيه عقل ، وكذا قتل النفس لغيظ أو غضب فى القاتل ، فحسن بعد ذلك « يعقلون » ، وأما الثانية فلتعلقها بالحقوق المالية والقولية ، فإن من علم أن له أيتاما يخلفهم من بعده لايليق به أن يعامل أيتام غيره إلا بما يجب أن يعامل به أيتامه، ومن يكيل أو يزن أو يشهد لغيره لو كان ذلك الأمر له، لم يحب أن يكون فيه خيانة ولا بخس ، وكان من وَعَدَ أو وُعِد ، لم يحب أن يخلف ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله ، فتَرْكُ ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبر ذلك وتأمّله ، فلذلك ناسب الختم بقوله ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، وأما الثالثة فلأن ترك اتباع شرائع الله الدينية مؤد إلى غضبه وإلى عقابه ، فحسن ﴿لعلكم تتقون ﴾ ، أى عقاب الله بسببه .

ومن ذلك قوله فى الأنعام أيضا : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم ... ﴾ [1] الآيات، فإنه ختم الأولى بقوله ﴿ لقوم يعلمون ﴾ ، والثانية بقوله ﴿ لقوم يفقهون ﴾ ، والثالثة بقوله : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ ، وذلك لأن حساب النجوم والاهتداء بها يختص بالعلماء بذلك ، فناسب ختمه بـ « يعلمون » ، وإنشاء الخلائق من نفس واحدة، ونقلهم من صلب إلى رحم ثم إلى الدنيا، ثم إلى حياة أو موت، والنظر فى ذلك

---

١ - الأنعام ٩٧ - ٩٩ . وبقية الآيات ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، فانظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

والفكر فيه أدق ، فناسب ختمه بـ « يفقهون » لأن الفقه فهم الأشياء الدقيقة ، ولما ذكر ما أنعم به على عباده من سعة الأرزاق والأقوات والثمار وأنواع ذلك ، ناسب ختمه بالإيمان الداعي إلى شكره تعالى على نعمه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاما تذكرون** ﴾ (١)، حيث ختم الأولى بـ «تؤمنون» ، والثانية بـ « تذكّرون » ووجهه أن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة لاتخفى على أحد، فقول من قال : شعر ، كفر وعناد محض ، فناسب ختمه بقوله ﴿ قليلا ما تؤمنون ﴾ . وأما مخالفته لنظم الكهان وألفاظ السجع فتحتاج إلى تذكر وتدبر ؛ لأن كلا منهما نثر ، فليست مخالفته له في وضوحها لكل أحد كمخالفته الشعر، وإنما تظهر بتدبر ما في القرآن من الفصاحة والبلاغة والبدائع والمعاني الأنيقة ، فحسن ختمه بقوله : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ .

ومن بديع هذا النوع اختلاف الفاصلتين في موضعين والمحدث عنه واحد لنكتة لطيفة ، كقوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ (٢)، ثم قال في سورة النحل : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾ (٣)، قال ابن المنيّر : كأنه يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة، فأنت آخذها وأنا معطيها ، فحصل لك عند أخذها وصفان : كونك ظلوما ، وكونك

---

٢ - الحاقة ٤١ ، ٤٢ .

٢ - ابراهيم ٣٤ .

٣ - النحل ١٨ .

كفارا، يعنى لعدم وفائك بشكرها، ولى عند اعطائها وصفان وهما : إنى غفور رحيم ، أقابل ظلمك بغفرانى ، وكفرك برحمتى ، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير، ولا أجازى جفاك إلا بالوفاء.

وقال غيره : إنما خص سورة إبراهيم بوصف المنعم عليه ، وسورة النحل بوصف المنعم ؛ لأنه فى سورة إبراهيم فى مساق وصف الإنسان ، وفى سورة النحل فى مساق صفات الله وإثبات لألوهيته .

ونظيره قوله تعالى فى سورة الجاثية : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ (١) ، وفى فصّلت ختم بقوله : ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ (٢)، ونكتة ذلك أن قبل الآية الأولى ﴿ **قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون** ﴾ (٣)، فناسب الختام بفاصلة البعث لأن قبله وصفهم بإنكاره ، ،وأما الثانية والختام فيها مناسب ، لأنه لايضيع عملا صالحا ، ولا يزيد على من عمل سيئا .

وقال فى سورة النساء : ﴿ **إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما** ﴾ (٤)، ثم أعادها ، وختم بقوله : ﴿ **ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالا بعيدا** ﴾ (٥)، ونكتة ذلك أن الأولى نزلت فى اليهود ، وهم الذين افتروا

---

١ - الجاثية ١٥ .
٢ - فصلت ٤٦ .
٣- الجاثية ١٤ .
٤ - النساء ٤٨ .
٥ - النساء ١١٦ .

على الله ما ليس فى كتابه، والثانية نزلت فى المشركين ولا كتاب لهم وضلالهم أشد .

ونظيره قوله فى المائدة ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ (١) ، ثم أعادها فقال : ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ (٢)، ثم قال فى الثالثة : ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ (٣)، ونكتته أن الأولى نزلت فى أحكام المسلمين ، والثانية فى اليهود، والثالثة فى النصارى، وقيل : الأولى فيمن جحد ما أنزل الله، والثانية فيمن خالفه مع علمه ولم ينكره، والثالثة فيمن خالفه جاهلا . وقيل : الكافر والظالم والفاسق كلها بمعنى واحد، وهو الكفر، عبّر عنه بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة، واجتناب صورة التكرار .

وعكس هذا اتفاق الفاصلتين والمحدث عنه مختلف ، كقوله فى سورة النور : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم** ﴾، إلى قوله ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم** ﴾ (٤)، ثم قال : ﴿ **وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم** ﴾ (٥).

التنبيه الثانى : من مشكلات الفواصل قوله تعالى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ (٦). فإن قوله : « وإن تغفر لهم » يقتضى أن تكون الفاصلة « الغفور الرحيم » وكذا

---

١ - المائدة ٤٤ .
٢ - المائدة ٤٥ .
٣ - المائدة ٤٧ .
٤ - النور ٥٨ .
٥ - النور ٥٩ .
٦ - المائدة ١١٨ .

نقلت عن مصحف أبيّ وبها قرأ ابن شنبوذ ، وذكر في حكمته أنه لايغفر لمن استحق العذاب إلاّ من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه، فهو العزيز أي الغالب ، والحكيم هو الذي يضع الشيء في محله. وقد يخفى وجه الحكمة على بعض الضعفاء في بعض الأفعال فيتوهم أنه خارج عنها ، وليس كذلك ، فكان في الوصف بالحكيم احتراس حسن ، أي وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته .

ونظير ذلك قوله في سورة التوبة : ﴿ **أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ (١) وفي سورة الممتحنة : ﴿ **واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ (٢)، وفي غافر : ﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن** ﴾ (٣)، إلى قوله : ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ (٣)وفي النور : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم** ﴾ (٤)، فإن بادىء الرأي يقتضي « تواب رحيم » لأن الرحمة مناسبة للتوبة لكن عبّر به إشارة إلى فائدة مشروعية اللعان وحكمته ، وهي الستر عن هذه الفاحشة العظيمة.

ومن خفيّ ذلك أيضا قوله في سورة البقرة : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾ (٥)، وفي آل عمران : ﴿ **قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير** ﴾ (٦)، فإن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة

---

١ - التوبة ٧١ .
٢ - الممتحنة ٥ .
٣ - غافر ٨ .
٤ - النور ١٠ .
٥ - البقرة ٢٩ .
٦ - آل عمران ٢٩ .

الختم بالقدرة ، وفى آية آل عمران الختم بالعلم والجواب أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض ، وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم ، وخلق السموات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت ، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالما بما فعله كليا وجزئيا ، مجملا ومفصلا ، ناسب ختمها بصفة العلم، وآية آل عمران لما كانت فى سياق الوعيد على موالاة الكفار، وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ، ناسب ختمها بصفة القدرة .

ومن ذلك قوله : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا** ﴾ (١) . فالختم بالحلم والمغفرة عقب تسابيح الأشياء غير ظاهر فى بادىء الرأى وذكر فى حكمته أنه لما كانت الأشياء كلها تسبّح ولا عصيان فى حقها وأنتم تعصون ، ختم به مراعاة للمقدّر فى الآية وهو العصيان ، كما جاء فى الحديث : « لولا بهائم رُتّع وشيوخ رُكّع ، وأطفال رُضّع ، لصُبّ عليكم العذاب صبّاً * » .

وقيل : التقدير : حليما عن تفريط المسبحين ، غفورا لذنوبهم ، وقيل حليما عن المخاطبين الذين لايفقهون التسبيح بإهمالهم النظر فى الآيات والعبر ليعرفوا حقه بالتأمل فيما أودع فى مخلوقاته مما يوجب تنزيهه .

التنبيه الثالث : فى الفواصل مالا نظير له فى القرآن ، كقوله عقب الأمر بالغض فى سورة النور : ﴿ **إن الله خبير بما**

---

١ - الإسراء آية ٤٤ .

(*) اضافت طبعة الشيخ عثمان عبد الرازق ٢ : ١٠٧ : بعد ذلك « ولرض رضا » .

يصنعون ﴾ [1] ، وقوله عقب الأمر بالدعاء والاستجابة : **﴿ لعلهم يرشدون ﴾** [2] .

وقيل : فيه تعريض بليلة القدر حيث ذكر عقب ذكر رمضان ، أى لعلهم يرشودن إلى معرفتها .

* * *

ثانيا : (التصدير)

وأما التصدير فهو أن تكون تلك اللفظة بعينها تقدمت فى أول الآية، وتسمى أيضا رد العجز على الصدر .

وقال ابن المعتز : هو ثلاثة أقسام :

الأول : أن يتوافق آخر الفاصلة ، آخر كلمة فى الصدر، نحو **﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا ﴾** [3].

والثانى : أن يتوافق أول كلمة منه : نحو **﴿ وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب ﴾** [4]، **﴿ قال إنى علملكم من القالين ﴾** [5] .

الثالث : أن يوافق بعض كلماته ، نحو **﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾** [6]، **﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾** [7].

---

١ - النور ٣٠ .
٢ - البقرة ١٨٦ .
٣ - انساء ١٦٦ .
٤ - آل عمران ٨ .
٥ - الشعراء ١٦٨ .
٦ - الأنعام آية ١٠ .
٧ - الإسراء آية ٢١ .

ثالثا : التوشيح

وأما التوشيح فهو أن يكون فى أول الكلام ما يستلزم القافية ، والفرق بينه وبين التصدير أن دلالته معنوية وذاك لفظية، كقوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ - آل عمران آية ٣٣ -

فإن « اصطفى » لايدل على أن الفاصلة «العالمين » لاباللفظ ، لأن لفظ « العالمين» غير لفظ « اصطفى » . ولكن بالمعنى ، لأنه يعلم أن من لوازم اصطفاء شيء أن يكون مختارا على جنسه وجنس هؤلاء المصطفين العالمون .

وكقوله : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ قال ابن أبى الإصبع :

فإن كان حافظا لهذه السورة متفطنا إلى أن مقاطع آياتها النون المردفة، وسمع فى صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة « مظلمون » لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ، أى دخل فى الظلمة ، ولذلك سمى توشيحا لأن الكلام لما دل أوله على آخره نزّل المعنى منزلة الوشاح ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يحوّل عليهما الوشاح [1] .

---

١ - السيوطى ، الاتقان ج ٣ / ٣٥٥ .

رابعاً : الإيغـــال (١)

هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، وزعم بعضهم أنه خـاص بالشـعـر ، وردّ بأنه وقع فى القـرآن من ذلك : ﴿ **ياقوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون** ﴾ - يـس - ٧- . فقوله « وهم مهتـدون » إيغال لأنه يتم المعنى بدونه إذ الرسول مـهتـدٍ لامحالة لكن فيه زيادة مبالغة فى الحث على اتباع الرسل والترغيب فيه .

وجعل ابن أبى الإصبع منه ﴿ **ولا تسـمع الصم الدعـاء إذا ولّوا مدبرين** ﴾ فإن قوله إذا « ولوا مـدبرين » زائد على المعنى لمدح المؤمنين والتعريض بالذم لليهود ، وأنهم بعيدون عن الإيقان ﴿ **إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ ، فـقـوله (مثلمـا) إلى آخـره إيغـال زائد على المعنى لتحقيق هذا الوعد وأنه واقع معلوم ضرورة لا يرتاب فيه أحد .

---

١ - السيوطى، الإتقان فى علوم القرآن ج ٣ / ٢٤٩ - ٢٥٠ .

فصل*

(فى أقسام الفواصل)

قسّم البديعيون السجع، ومثله الفواصل إلى أقسام : مطرّف ، ومتوازٍ ومرصّع ، ومتوازن، ومتماثل .

فالمطرف : أن تختلف الفاصلتان فى الوزن وتتفقا فى حروف السجع، نحو :

﴿ ما لكم لاترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا ﴾ (١).

والموازى : أن يتفقا وزنا وتقفية ، ولم يكن مافى الأولى مقابلا لما فى الثانية فى الوزن والتقفية ، نحو :**﴿ فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة ﴾** (٢) .

والمتوازن : أن يتفقا فى الوزن دون القافية ، نحو :

﴿ ونمارق مصفوفة * وزرابى مبثوثة ﴾ (٣).

والمرصع : أن يتفقا وزنا وتقفية ، ويكون ما فى الأولى مقابلا لما فى الثانية كذلك ، نحو : **﴿ إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾** ٤).
﴿ إن الأبرارلفى نعيم* وإن الفجار لفى جحيم ﴾ (٥).

والمتماثل : أن يتساويا فى الوزن دون التقفية ، وتكون أفراد الأولى

---

* السيوطى ، الإتقان ج ٣ / ٢٥١ وما بعدها .

١ - نوح ١٣ ، ١٤ .
٢ - الغاشية ١٣ ، ١٤ .
٣- الغاشية ١٥ ، ١٦ .
٤ - الغاشية ٢٥ ، ٢٦ .
٥ - الانفطار ١٣ ، ١٤ .

مقابلة لما فى الثانية، فهو بالنسبة إلى المرصع كالمتوازن بالنسبة إلى المتوازى ، نحو :

﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين * وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ (١).

فالكتاب والصراط يتوازنان وكذا المستبين والمستقيم ، واختلفا فى الحرف الأخير .

فصـــل

بقى نوعان بديعيان متعلقان بالفواصل :

أحدهما : التشريع ، وسمّاه ابن أبى الإصبع : التوءم ، وأصله أن يبنى الشاعر بيته على وزنين من أوزان العروض ، فإذا أسقط منها جزءا أو جزءين صار الباقى بيتا من وزن آخر، ثم زعم قوم اختصاصه به .

وقال آخرون : بل يكون فى النثر بأنه يكون مبنيا على سجعتين لو اقتصر على الأولى منهما كان الكلام تاما مفيدا . وإن ألحقت به السجعة الثانية كان فى التمام ، والإفادة على حاله مع زيادة معنى ما زاد من اللفظ.

قال ابن أبى الإصبع : وقد جاء من هذا الباب معظم سورة الرحمن؛ فإن آياتها لو اقتصر فيها على أولى الفاصلتين دون **﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾** (٢)، لكان تاما مفيدا وقد كمل بالثانية ، فأفاد معنى زائدا من التقرير والتوبيخ .

---

١ - الصافات ١١٧ ،١١٨ .

٢ - الرحمن آية ١٨ .

قلت : التمثيل غير مطابق ، والأولى أن يمثل بالآيات التى فى إثباتها ما يصلح أن تكون فاصلة، كقوله : ﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ (١)، وأشباه ذلك .

الثاني : الالتزام ، ويسمى لزوم مالا يلزم ، وهو أن يلتزم فى الشعر أو النثر حرف أو حرفان فصاعدا قبل الرويّ بشرط عدم الكلفة . مثال التزام حرف ﴿ فأما اليتيم فلاتقهر * وأما السائل فلا تنهر ﴾ (٢) التزم الهاء قبل الراء ، ومثله ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ (٣) ، الآيات التزم فيها الراء قبل الكاف ، ﴿ فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنّس ﴾ (٤) التزم فيها النون المشددة قبل السين .﴿ والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق ﴾ (٥).

ومثال التزام حرفين ﴿ والطور * وكتاب مسطور ﴾ (٦) ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرا غير ممنون ﴾ (٧)، ﴿ بلغت التراقى * وقيل من راق * وظن أنه الفراق ﴾ (٨)

ومثال التزام ثلاثة أحرف ﴿ تذكروا فإذا هم مبصرون * واخوانهم يمدونهم فى الغيّ ثم لايُقْصِرون ﴾ (٩) .

١- الطلاق ١٢ .

٢- الضحى ٩ ، ١٠ .

٣ - الشرح ١ .

٤ - التكوير ١٥ ، ١٦ .

٥ - الإنشقاق ١٧ ، ١٨ .

٦ - الطور ١ ، ٢ .

٧ - القلم ٢ ، ٣ .

٨ - القيامة ٢٦ - ٢٨ .

٩- الأعراف ٢٠١ ، ٢٠٢ .

تنبيهـــات

الأول : قال أهل البديع : أحسن السجع ونحوه ما تساوت قرائنه ، نحو :

﴿ **في سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود** ﴾ (١)، ويليه ماطالت قرينته الثانية ، نحو : ﴿ **والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾ (٢) أو الثالثة نحو : ﴿ **خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ...** ﴾ (٣). الآية ..

الثاني : قالوا أحسن السجع ما كان قصيرا لدلالته على قوة المنشىء ، وأقله كلمتان نحو ﴿ **يأيها المدثر * قم فأنذر ..** ﴾ (٤) الآيات ، ﴿ **والمرسلات عرفا ..** ﴾ (٥) الآيات ﴿ **والذاريات ذروا ..** ﴾ (٦) الآيات ، ﴿ **والعاديات ضبحا ..** ﴾ (٧) الآيات ، والطويل ما زاد عن العشر، كغالب الآيات ، وما بينهما متوسط كآيات سورة القمر .

الثالث : قال الزمخشري في كشافه القديم : لاتحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سردها ، على المنهج الذى يقتضيه حسن النظم والتآمه، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة، وبنى على ذلك أن التقديم في ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ (٨) ، ليس لمجرد الفاصلة، بل

---

١ - الواقعة ٢٨ - ٣٠ .
٢ - النجم ١ ، ٢ .
٣ - الحاقة ٣٠ - ٣٢ .
٤ - المدثر ١ ، ٢ .
٥- المرسلات ١ .
٦ - الذاريات ١ .
٧ - العاديات ١ .
٨- البقرة ٤ .

لرعاية الاختصاص.

الرابع : مبنى الفواصل على الوقف ، ولهذا ساغ مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس ، كقوله : ﴿ **إنا خلقناهم من طين لازب** ﴾ مع قوله : ﴿ **عذاب واصب** ﴾ و ﴿ **شهاب ثاقب** ﴾ (١) .

وقولهه : ﴿ **بماء منهمر** ﴾ مع قوله : ﴿ **قد قدر** ﴾ ، ﴿ **دسر** ﴾ ، ﴿ **مستمر** ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ **وما لهم من دونه من والٍ** ﴾ مع قوله : ﴿ **وينشىء السحاب الثقال** ﴾ (٣) .

الخامس : كثر فى القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين والحاق النون وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك ، كما قال سيبويه : إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون ؛ لأنهم أرادوا مدّ الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، وجاء فى القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع .

السادس : حروف الفواصل إما متماثلة وإما متقاربة :

فالأولى مثل ﴿ **والطور * وكتاب مسطور * فى رق منشور * والبيت المعمور** ﴾ (٤) .

والثانى مثل ﴿ **الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين** ﴾ (٥) ، ﴿ **ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا**

---

١ - الصافات ٩ - ١١ .
٢ - القمر ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ .
٣ - الرعد ١١ ، ١٢ .
٤ - الطور ١ - ٤ .
٥ - الفاتحة ٣ ، ٤ .

شيء عجيب ﴾ (١) .

السابع : كثر في الفواصل التضمين والإيطاء لأنهما ليسا بعيبين في النثر ، وإن كانا عيبين في النظم ، فالتضمين أن يكون ما بعد الفاصلة متعلقا بها، كقوله تعالى : **﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل ﴾** (٢) ، والإيطاء تكرر الفاصلة بلفظها كقوله تعالى في الإسراء : **﴿ هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾** (٣) . وختم بذلك الآيتين بعدها . (٤)

ثالثا – المستوى الصوتي

النظام الصوتي للقرآن *

نريد بنظام القرآن الصوتي ، اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته ، واتصالاته وسكتاته ، اتساقا عجيبا ، وائتلافا رائعا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس ، بطريقة لايمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور . وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية ، وهي مرسلة على وجه السذاجة في الهواء ؛ مجردة من هيكل الحروف والكلمات ، كأن يكون السامع بعيداً عن القارىء المجوّد ، بحيث لاتبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزا بعضها عن بعض، بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدات

---

١ – ق ١ ، ٢ .

٢ – الصافات ١٣٧ ، ١٣٨ . ٣ – الإسراء ٩٣ .

٤ – السيوطي ، الاتقان ج ٣ / ٢٥٢ وما بعدها .

* راجع، محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان ، ج ٢ / ٣٠٩ ، ٣١٠

والغنات ، والحركات والسكنات ، والاتصالات والسكتات ، نقول : إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لايعرف العربية بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب ، يفوق فى حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر، لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها، والطبع أن يمجها، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافى فى القصيدة الواحدة غالبا وإن طالتْ ، على نمط يورث سامعه السأم والملل، بينما سامع لحن القرآن لايسأم ولايمل، لأنه يتنقل فيه دائما بين ألحان متنوعة ، وأنغام متجددة، على أوضاع مختلفة يهز كل وضع منها أوتار القلوب ، وأعصاب الأفئدة .»

وهذا الجمال الصوتى أو النظام التوقيعى ، هو أول شىء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن ، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام ، سواء أكان مرسلا أم مسجوعا، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر ؛ لأنهم أدركوا فى إيقاعه وترجيعه لذة ، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة، لم يعرفوا شيئا قريبا منها إلا فى الشعر؛ ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئه فيما ظنوا ، حتى قال قائلهم – وهو الوليد ابن المغيرة – : « وما هو بالشعر » معللا ذلك بأنه ليس علـى أعاريض [1] الشعر فى رجزه [2] ولا فى قصيده . بيد

---

١ – جمع عروض على غير قياس كأنهم جمعوا عريضا . وهو ميزان الشعر أو الجزء الذى فى آخر النصف الأول من البيت . مختار.

٢ – الرجز ضرب من الشعر وزنه مستفعلن ست مرات . وزعم الخليل أنه ليس بشعر إنما هو أنصاف أبيات أو أثلاث ؟ قاموس .

أنه تورط فى خطأ أفحش من هذا الخطأ ، حين زعم فى ظلام العناد والحيرة أنه سحر ، لأنه أخذ من النثر جلاله وروعته، ومن النظم جماله ومتعته ووقف منهما فى نقطة وسط خارقة لحدود العادة البشرية ، بين إطلاق النثر وإرساله وتقييد الشعر وأوزانه. ولو أنصف هؤلاء لعلموا أنه كلام منثور ولكنه معجز ليس كمثله كلام، لأنه صادر من متكلم قادر ليس كمثله شىء . وما هو بالشعر ولا بالسحر ، لأن الشعر معروف لهم بتقفيته ووزنه وقانونه ورسمه، والقرآن ليس منه ؛ ولأن السحر محاولات خبيثة لاتصدر إلا من نفس خبيثة ، ولقد علمت قريش أكثر من غيرهم طهارة النفس المحمدية وسموها ونبلها، إذ كانوا أعلم الناس به وأعرفهم بحسن سيرته وسلوكه، وقد نشأ فيهم وشب وشاب بينهم . هذا إلى أن القرآن كله، وما هو إلا دعوة طيبة لأهداف طيبة، لامحل فيها إلى خبث ورجس ، بل هى تحارب السحر وخبثه ورجسه ، وتسمه بأنه كفر، إذ قال: « **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر * وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر** » .

ثم إن السحر معروف المقدمات والوسائل، فليس بمعجز ، ولايمكنه ولن يمكنه أن يأتى فى يوم من الأيام بمثل هذا الذى جاء به القرآن .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال له : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا يعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله (بكسر القاف وفتح الباء). قال الوليد : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال · فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك

منكر له وكاره . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم من رجل أعلم منى بالشعر لا برجزه ولا قصيده ولا بأشعار الجن . وألله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا . ووالله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله وإنه ليعلو ولايعلى ؛ وإنه ليحطم ما تحته ! قال أبو جهل للوليد : لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه فقال الوليد : دعنى أفكر . فلما فكر قال : هذا سحر يأثره عن غيره. وفى ذلك نزل قوله تعالى ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقه صعودا * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر *** ﴾ . رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى . فانظر إلى الرجل حين أرسل نفسه على سجيتها العربية ، وبديهتها الفطرية كيف أنصف فى حكمه ، حين تجرد ساعة من عناده وكفره، وقال : والله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا إلى أن قال : وإنه ليحطم ما تحته . ثم انظر إلى الرجل حين غلبت عليه شقوته ، وعاوده عناده وتعصبه، كيف قاوم فطرته وأكره نفسه على مخالفة شعوره ووجدانه وقال ماقال بعد أن حار وذهب كل مذهب فى ضلاله وحيرته ، على نحو ما يصور القرآن تلك الحيرة والمقاومة والاستكراه بقوله :

﴿ إنه فكر وقدّر ﴾ الخ . نسأل الله الحماية والهداية بمنه وكرمه . آمين (١) .

---

١ – عبد العظيم الزرقانى ، مناهل العرفان ج ٢ / ٣١١ .

الجمال اللغوى للقرآن : *

ونريد بجمال القرآن اللغوى تلك الظاهرة العجيبة التى امتاز بها القرآن فى وصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيباً دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس فى كلامهم. وبيان ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بلذة جديدة فى وصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض فى الكلمات والآيات هذا ينقر وذاك يصفر. وهذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك مما هو مقرر فى باب مخارج الحروف وصفاتها فى علم التجويد . ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس فى هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة ، الجامعة بين اللين والشدة ، والخشونة والرقة ، والجهر والخفية ، على وجه دقيق محكم ، وضع كلا من الحروف وصفاتها المتقابلة فى موضعه بميزان حتى تألف من المجموع قالب لفظى مدهش ، وقشرة سطحية أخاذة امتزجت فيها جزالة البداوة فى غير خشونة ، برقة الحضارة من غير ميوعة ، ولاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة . ولقد وصل هذا الجمال اللغوى إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو دخل فى القرآن شىء من كلام الناس لاعتل مذاقه فى أفواه قارئيه ، واختل نظامه فى آذان سامعيه .

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوى وذاك النظام الصوتى ، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية ، كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى :وذلك أن من شأن الجمال الغوى والنظام الصوتى ، أن

---

* المصدر السابق ص ٣١٢ .

يسترعى الأسماع، ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال فى كل إنسان ، إلى هذا القرآن الكريم : وبذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخلق وفى آذانهم ،ويعرف بذاته ومزاياه بينهم ، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ **إنا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون** ﴾ (١)

---

١ - عبد العظيم الزرقانى ، مناهل العرفان ج ٢ / ٣١٢، ٣١٣ .

إعجاز النظم الموسيقى فى القرآن

تناول الأستاذ الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى فى كتابه إعجاز القرآن ، موضوع الحروف العربية وأصواتها وفيه أشار إلى هذا الضرب من ضروب الإعجاز فى القرآن فقال :

(كان منطق القوم يجرى على أصل من تحقيق الحروف وتفخيمها، ولكن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة فى جملتها كيف اتفقت ، فلا بد لها مع ذلك من نوع فى التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضاً ، ويتألف منها شىء مع شىء ، فتتداخل خواصها، وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقى ، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتى الذى يثير بعضه بعضا على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده .

فكان العرب يترسلون أو يحذمون (١) فى منطقهم كيفما اتفق لهم ، لايراعون أكثر من تكييف الصوت ؛ دون تكييف الحروف التى هى مادة الصوت ، إلى أن يتفق من هذه قطع فى كلامهم تجىء بطبيعة الغرض الذى تكون فيه، أو بما تعمل لها المتكلم، على نمط منالنظم الموسيقى ، إن لم يكن فى الغاية ففيه ما عرفوه من هذه الغاية .

فلما قرىء عليهم القرآن ، رأوا حروفه فى كلماته ، وكلماته فى جملة ، ألحانا لغوية رائعة ؛ كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هى توقيعها (٢) فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لاقبل لهم به،

---

١ - يقال : حذم فى قراءته ، إذا أسرع .

٢ - كل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية ، لايرون فى الفن العربى بجملته شيئا يعدل هذا التناسب الذى هو طبيعى فى كلمات القرآن وأصوات حروفها، وما منهم من يستطيع أن يختمز فى ذلك حرفا واحدا، ويعلو القرآن على الموسيقى أنه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقى (الرافعى ، إعجاز القرآن ص ١٦٨) .

وكان ذلك أبين في عجزهم ؛ حتى إن من عارضه منهم، كمسيلمة ، جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني ، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية، وإنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ؛ وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع.

وأنت تتبين ذلك إذا أنشأت ترتل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن ، مما تراعي فيه أحكام القراءة وطرق الأداء ، فإنك لابد ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن ، بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكّرت الكلام وغيرته ، فأخرجته من صفة الفصاحة، وجردته من زينة الأسلوب، وأطفأت رواءه ؛ وأنضبت ماءه، لأنك تزنه على أوزان لم يتسق عليها في كل جهاته ، فلا تعدو أن تظهر من عيبه مالم يكن بعيبه إذا أنت أرسلته في نهجه وأخذته على جملته . (١)

وحسبك بهذا اعتبارا في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن ، وأنه مما لايتعلق به أحد، ولا ينفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر ، والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق ؛ والتفشي والتكرير ، وغير ذلك مما أوضحنا في صفات الحروف من باب اللغة في تاريخ آداب العرب . (٢)

ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفى طباع البلغاء بعد

---

١ - مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن ص ١٦٩ .

٢ - يشير الرافعي إلى كتاب « تاريخ آداب العرب » له

الإسلام، تولى تربية الذوق الموسيقى اللغوى فيهم ، حتى كان لهم من محاسن التركيب فى أساليبهم - مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف - مالم يكن مثله للعرب من قبلهم ، وحتى خرجوا عن طرق العرب فى السجع والترسل على جفاء كان فيهما، إلى سجع وترسل تتعرف فى نظمها آثار الوزن والتلحين ، على ما يكون من تفاوتهم فى صفة ذلك ومقداره، ومبلغهم من العلم به ، وتقدمهم فى صنعته .

ولولا القرآن وهذا الأثر من نظمه العجيب ، لذهب العرب بكل فضيلة فى اللغة ، ولم يبق بعدهم للفصحاء إلا كما بقى من بعد هؤلاء فى العامية ، بل لما بقيت اللغة نفسها ، كما بسطناه فى موضعه (١) .

وليس يخفى أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسى ، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب فى تنويع الصوت ، بما يخرجه فيه مدا أو غنّة أو لينا أو شدة، وبما يهيىء له من الحركات المختلفة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فى النفس من أصولها ؛ ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع ؛ أو الإطناب والبسط ؛ بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها ، مما هو بلاغة الصوت فى لغة الموسيقى (٢) .

فلو اعتبرنا ذلك فى تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها فى هز الشعور واستثارته من أعماق النفس؛ وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربى أو أعجمى (٣) ،

---

١ - المرجع السابق والصفحة .

١ - المرجع السابق ص ١٧٠

حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لايعرفون لله آية فى الآفاق ولا فى أنفسهم ، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه ، لأن فيهم طبيعة إنسانية ، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة ، هو بلاغة اللغة الطبيعية التى خلقت فى نفس الإنسان ، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان ؛ وعلى هذا وحده يؤول الأثر الوارد أن فى الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا ، لأنه يجنب هذا الكمال اللغوى ما يعد نقصا منه إذا لم تجتمع أسباب الأداء فى أصوات الحروف ومخارجها ، وإنما التمام الجامع لهذه الأسباب صفاء الصوت ، وتنوع طبقته، واستقامة وزنه على كل حرف.

موسيقى الفواصل : *

وما هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها ؛ أو بالمد ، وهو كذلك طبيعى فى القرآن ، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لايكونأكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع

* مصطفى صادق الرافعى ، إعجاز القرآن ، ص ١٧٠ .

القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى.

وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة ، وأثرها طبيعى فى كل نفس ، فهى تشبه فى القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه ، وكلّ نفس لاتفهمه، ثم لايجد من النفوس على أى حال إلا الإقرار والاستجابة ؛ ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يطمع فيه أو فى أكثره ، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألقت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللا بينها ، أو ضعفا ظاهرا فى نسق الوزن وجرس النغمة ، وفى حس السمع وذوق اللسان ، وفى انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ، ولرأيت لذلك هجنة فى السمع كالذى تنكره من كل مرئى لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا، وذهب ما بقى منها إلى جهات متناكرة . (١)

ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام ، أنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة ؛ وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح فلم تخل بأدائه ، رأيته غضا طريا ، وجديدا مونقا ، وصادفتَ من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا، وهذا أمريستوى فى أصله العالم الذى يتذوق الحروف ويستمرى تركيبها ويمعن فى لذة نفسه من ذلك ، والجاهل الذى يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات

١ - المرجع السابق ص ١٧٢ .

الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه. وهو لعمر الله أمر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر، ولا نرى جهة تعليله ولا نصحح منه تفسيرا إلا ما قدمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية ، وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم ، بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها ، ثم اختلاف ذلك فى الآيات بسطا وإيجازا ، وابتداء وردا ، وإفرادا وتكريرا .

هذا على أنه ترسيل واتساق وتطويل ، لايضبط بحركات وسكنات كأوزان الشعر فتجعل له بطبيعتها صفة من النظم الموسيقى ، ولايخرج على مقاطع الكلمات التى تجرى فيها الألحان وضروب النغم ، ممايسهل تأليفه ويكون أمره إلى الصوت وطريقة تصريفه وتوقيعه، لا إلى أصوات الحروف ووجه تأليفها وتتابعها فيحسن مع أهل الصناعة وإن كانت حروفه غثة التركيب سمجة المخارج وكانت جافية كزة ، حتى إذا صار إلى من لايحسن أن يوقع عليه الصوت ويطرد له اللحن من غير حذاق المغنين ، خرج أبرد كلام وأرذله وأسمجه. وجاء وما تعرف من الكلال والفتور والتهالك فى كلام أكثر مما تعرف منه (١) .

ولو تدبرت ألفاظ القرآن فى نظمها ، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجرى فى الوضع والتركيب مجرى الحروف لنفسها فيما هى له من أمرالفصاحة فيهيىء بعضها لبعض ، ويساند بعضا ، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف ، مساوقة لها فى النظم الموسيقى ، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة فى نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان،

---

١ - مصطفى صادق الرافعى ، إعجاز القرآن ص ١٧١ ، ١٧٢ :

فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين فى حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هى استعملت فى القرآن رأيت لها شأنا عجيبا ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التى قبلها قد امتهدت لها طريقا فى اللسان ، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقى حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة فى موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة (١).

من ذلك لفظة (النذُر) جمع نذير ؛ فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا ، فضلا عن جسأة هذا الحرف ونبوه فى اللسان ، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام . فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه ؛ ولكنه جاء فى القرآن على العكس وانتفى من طبيعته فى قوله تعالى : ﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴾ ، فتأمل هذا التركيب ، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها فى حس السمع وتأمل مواضع القلقلة فى دال (لقد) ، وفى الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد ، كأنها تثقيل لخفة التتابع فى الفتحات إذا هى جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد ، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض فى الأطعمة. ثم ردد نظرك فى الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها ، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه ، ثم أعجب لهذه الغنة التى

---

١ - المرجع السابق نفسه .

سبقت الطاء فى نون (أنذرهم) وفى ميمها ، وللغنة الأخرى التى سبقت الذال فى (النذر).

وما من حرف أو حركة فى الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجبا فى موقعة والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة واحدة فى نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة، ليس منها إلا ما يشبه فى الرأى أن يكون قد تقدم فيه النظر وأحكمته الرؤية وراضه اللسان، وليس منها إلا متخير مقصود إليه من بين الكلم ومن بين الحروف ومن بين الحركات ، وأين هذا ونحوه عند تعاطيه ومن أى وجه يلتمس وعلى أى جهة يستطاع، وكيف يأتى للإنسان فى مثل تلك الآية وحدها - فضلا عن القرآن كله - وهو لايكون إلا عن نظر وصنعة كلامية ؟ والبليغ من الناس متى اعتسف هذا الطريق ولم يكن فى الكلام إلى سجيته وطبعه فقد خذلته البلاغة واستهلكته الصنعة ، وضاق به التصرف وتناثرت أجزاء كلامه من جهاتها، وكلما لج فى المكابرة لجت البلاغة فى الإباء ، فمثله كمن يمشى مستديرا ويحسب أنه يتقدم ، لأنه - زعم - لم يحرف وجهه ولم ينفتل عن قصده ، ولأن نظره ما يزال ثابتا فيما يستقبله !

إنما تلك طريقة فى النظم قد انفرد بها القرآن ، وليس من بليغ يعرف هذا الباب إلا وهو يتحاشى أن يلم به من تلك الجهة أو يجعل طريقة عليها ، فإن اتفق له شىء منه كان إلهاما ووحيا ، لاتقتحم عليه الصناعة ولا يتيسر له الطبع بالفكر والنظر ، (١) وكان مع ذلك لايخلو

---

١ - المرجع السابق ص ١٧٨ .

من التواء ومن مغمز ، على أنه يكون جملة من فصل أو عبارة من جملة أو بيتا من قصيدة أو شطرا من بيت ، لايطرد ولا يستوى وليس إلا أن يتفق اتفاقا ؛ أما أن يتهيأ لأحد من البلغاء فى عصور العربية كلها من معارض الكلام وألفاظه، ما يتصرف به هذا التصرف فى طائفة أو طوائف من كلامه، على أن يضرب بلسانه ضربا موسيقيا ، وينظم نظما مطردا ، ويهذف الكلمة الكلمة وينصب الحرف للحرف ، ويعصب الحركة بالحركة ، ويجرى بعضا من بعض - فهذا إن أمكن أن يكون فى كلام ذى ألفاظ ، فليس يستقيم فى ألفاظ ذات معان ، فهو لغو من إحدى الجهتين ، ولو أن ذلك ممكن لقد كان اتفق فى عصر خلا من ثلاثة عشر قرنا، ونحن اليوم فى القرن الرابع عشر من تاريخ تلك المعجزة .

وقد وردت فى القرآن ألفاظ هى أطول الكلام عددَ حروف ومقاطع مما يكون مستثقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه ، ولكنها بتلك الطريقة التى أومأنا إليها قد خرجت فى نظمه مخرجا سريا ، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقا وأخفها تركيبا ، إذ تراه قد هيأ لها أسبابا عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات ، فلم يجرها فى نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها ، كقوله : ﴿ **ليستخلفنّهم فى الأرض** ﴾ فهى كلمة واحدة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها ، فإنها بذلك صارت فى النطق كأنها أربع كلمات ؛ إذ تنطق على أربعة مقاطع ، وقوله : ﴿ **فسيكفيكهم الله** ﴾ فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهى ثلاثة مقاطع وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين هذا المد الذى هو سر الفصاحة فى الكلمة كلها .

وهذا إنما هو الألفاظ المركبة التى ترجع عند تجريدها من المزيدات إلى الأصول الثلاثية أو الرباعية ، أما أن تكون اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه فى القرآن شيء، لأنه مما لاوجه للعذوبة فيه، إلا ما كان من اسم عرب ولم يكن فى الأصل إلا أن يتخلله المد كما ترى ؛ فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان . (١)

وفى القرآن لفظة غريبة هى من أغرب ما فيه ، وما حسنت فى كلام قط إلا فى موقعها منه ، وهى كلمة « ضيزى » من قوله تعالى : ﴿ تلك إذن قسمة ضيزى ﴾ (٢) ، ومع ذلك فإن حسنها فى نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ؛ ولو أُدِرْتَ اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها ؛ فإن السورة التى هى منها وهى سورة النجم ، مفصلة كلها على الباء ؛ فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ثم هى فى معرض الإنكار على العرب ، إذ وردت فى ذكر الأصنام وزعمهم فى قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات (٣) ، فقال تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ﴾ فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها الإنكار فى الأولى والتهكم فى الأخرى ؛ وكان هذا التصوير أبلغ ما فى البلاغة، وخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم فى إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين

---

١ – المرجع السابق ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

٢ – يقال : ضازه حقه وضامه ، أى منعه ونقصه ، فهى قسمة جائرة ، والضيز : الجور .

٣ – أى دفنهن على الحياة ، كما كان من عاداتهم .

المدّين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية .

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام ، وله نظائر فى لغتهم ، وكم من لفظة غريبة عندهم لاتحسن إلا فى موضعها ، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذى سبقت له بلفظها وهيئة منطقها ، فكأنّ فى تأليف حروفها معنى حسيا ، وفى تألف أصواتها معنى مثله فى النفس .

وإن تعجب فعاجب لنظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ما قبلها، إذ هى مقطعان : أحدهما مد ثقيل ، والآخر مد خفيف ، وقد جاءت عقب غنتين فى « إذن » و « قسمة » وإحداهما خفيفة حادة ، والأخرى ثقيلة متفشية ، فكأنها بذلك ليست إلا مجاوزة صوتية لتقطيع موسيقى . وهذا ، معنى رابع للثلاثة التى عددناها آنفا ، أما خامس هذه المعانى ، فهو أن الكلمة التى جمعت المعانى الأربعة على غرابتها، إنما هى أربعة أحرف أيضا (١) .

الإيقاع فى فواصل الآيات :

علمنا أن الفواصل فى القرآن الكريم هى بإزاء ورود الأسجاع فى كلام العرب ، والسجع لايكون مستمرا على نمط واحد لما فى ذلك من التكلف ، كذلك لم تجيء الفواصل كلها فى القرآن على نمط واحد، بل جاءت متفقة أحيانا ومختلفة أحيانا أخرى.

---

١ - مصطفى صادق الرافعى ، إعجاز القرآن ص ١٨٠ - ١٨١ .

وموسيقا السجع لاتلتزم تفعيلة ولا تتبع بحرا من بحور الشعر، وإن كان بعض الآيات تتفق مع أوزان شعرية ، لكنها لا تؤلف فيما بينها أبياتا شعرية ولا حتى بيتا واحداً .

قال ابن الأثير فى المثل السائر :

« إن أكثر القرآن مسجوع، حتى أن السورة لتأتى جميعها والاختصار، والسجع لايواتى فى كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار. فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب .

وها هنا وجه آخر هو أقوى من الأول ، ولذاك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع . ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعا » [1].

معنى الإيقاع :

الإيقاع فى اللغة معناه اتفاق الصوت فى الغناء [2] ، ولكنا نعنى به هنا إحساس الأذن والنفس بتناغم الصوت الحاصل من قراءة الآيات ولقد حاول الدكتور تمام حسان أن يبين معنى الإيقاع عن طريق شرح المقاطع اللغوية والنبر وانتهى فيه إلى أن الإيقاع إما إيقاع فى نطاق التوازن وإما فى نطاق الموزون ، والوزن فى العربية إنما يكون للشعر، والذى فى القرآن متوازن لا موزون [3] .

---

١ - ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، القسم الأول ص ٢١٤ بتعليق د / احمد الحوفى ، د/ بدوى طبانة طبع نهضة مصر .

٢ - المعجم الوجيز .

٣ - د/ تمام حسان ، البيان فى روائع القرآن ، دراسة أسلوبية للنص القرآنى من ص ٢٦٩ .

وهذا لايعنى أن القرآن ليس فيه إيقاع من النوع الموزون فقد انتقى الشهاب الخفاجى من العبارات القرآنية ما أمكن أن يطوّعه للوزن الشعرى وبنى من ذلك منظومة ضبط بها كميات البحور وتفعيلاتها على هذه العبارات القرآنية الموزونة ليسهل على المتعلم تذكر التفعيلات ومسميات البحور نذكر منها :

١ - قال فى تحديد كمية بحر الطويل :

أطال عزولى فيك كفرانه الهوى	وآمنت يا ذا الظبى فأْنس ولا تنفـــر
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلــن	فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

٢ - وقال فى البسيط :

إنى بسطت يدى أدعو على فئـة	لاموا عليك عسى تخلو أماكنهم
مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن	فأصبحوا لايرى إلا مساكنهـــم

٣ - وقال فى المديد :

يا مديد الهجر هل من كتابٍ	فيه آيـــات الشفا للسقيمِ
فاعـــلاتن فاعلن فاعـــلاتن	تلك آيات الكتاب الحكيمِ

٤ - وقال فى المتقارب :

تقارب وهات اسقنى كأس راحٍ	وباعد وُشاتك بُعد السماء
فعـولن فعـولن فعولن فعـولن	وإن يستغيثوا يغاثوا بمـــاءٍ

فأنت ترى أنه يستشهد بكلمات من القرآن ، والقرآن ليس فيه مما هو موزون ما يؤدى بيت شعر كامل ، فالوزن فى العربية للشعر والتوازن فى الإيقاع للنثر ، والذى فى القرآن إيقاع متوازن (١) .

---

١ - راجع ، د/ تمام حسان ، البيان فى روائع القرآن ، ص ٢٦٩ .

ويقول الدكتور تمام :

« أن الوزن والتوازن كليهما من صور الإيقاع وهما أيضا من القيم الصوتية التى تصلح أن تكون مجالا للفن والجمال. أما الوزن فبحسبك أن تتأمل ما يمنحه من الجمال للشعر والموسيقى ونحوهما، وأما التوازن فيكفى أن تنصت إلى صوت قارىء مجيد يرتل القرآن الكريم (ولا أقصد ترتيل التطريب بل الترتيل بدون تطريب) وسترى عندئذ أن ما فى القرآن من جمال التوازن قد يجاوز أحيانا جمال الوزن. وانظر كذلك إلى الكثير من أساليب الترتيل – وبخاصة ما بنى منها على قصار الجمل – وسوف ترى لها جاذبية خاصة تجتذب إليها انتباهك ، وتمنح أذنك من المتعة ونفسك من الارتياح مالا تجده فى بعض الشعر والغناء » .

« وكلما تقاربت أعداد المقاطع بين النبرين [١] أو انتظم اختلاف بعضها عن بعض حسن إيقاعها والعكس صحيح، بمعنى أن هذه الكميات بين نبر وآخر إذا تباينت ولم تتقارب أحس السامع كأن المتكلم يتعثر فى مشيته، بل إن المتكلم نفسه لابد أن يحس هذا الإحساس . أما هذا التقارب وذاك الانتظام فهو الذى نجده فى إيقاع الأسلوب القرآنى كما يتضح مما يلى من الشواهد وقد تم اختيار هذه النماذج اعتباطا، فيصدق على غيرها من آيات القرآن ما يصدق عليها [٢] :

١ – ﴿ أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط

١ – النبر معناه كما بينه الدكتور تمام : هو الصوت الذى يتم عنده الانتقال من طبقة صوتية إلى طبقة صوتية أخرى .

٢ – المصدر السابق ، البيان فى روائع القرآن ص ٢٧٠ .

بالكافرين ﴾ (البقرة ١٩) .

٢ - ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ (البقرة ٢٢) .

٣ - ﴿ زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حس المآب ﴾ (آل عمران ١٤) .

٤ - ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ﴾ (النساء ٢٠)

٥ - ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ (المائدة ٤٥)

٦ - ﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين ﴾ (الأنعام ٥٩) .

٧ - ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (الأعراف ٨٥) .

٨ - ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (التوبة ٩٤) .

٩ - ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصة من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ (يوسف ٢٥) .

١٠ - ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ﴾ (الكهف ١٦) .

فأنت تلمس عند قراءة هذه الآيات أن هذا التوازن هو مصدر رشاقة الأسلوب وأنه سبب قوى من أسباب ارتياح النفس له واحتفائها به (١) .

الإيقاع الصوتى والإيقاع الترتيلى : (٢)

لقد رتل الله القرآن ترتيلا (الفرقان ٢٢) وأمر رسوله ﷺ أن يرتل القرآن ترتيلا (المزمل ٤) والمعروف أنّ الترتيل مصدر رتّل يرتل وأنه وضع المجموعات فى أرتال كل رتل منها طائفة مجتمعة وبين كل رتل وما يليه انقطاع مؤقت . فأما الترتيل بالنسبة لله تعالى فذلك أنه أنزل القرآن منجما حسب الوقائع وأسباب النزول فإذا أنزلت آية أو آيات عدّ ذلك رتلا قائما بذاته بعده فترة انقطاع الوحى ثم يعود الوحى برَتلٍ آخر من الآيات وهكذا وهنا المعنى لايمس موضوعنا (وهو الإيقاع) مسا مباشرا . أما الترتيل بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فهو طريقة من طرق الأداء والقراءة . فتجويد القرآن يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقها على أمور أخرى منها المد بأنواعه والغنّة والسكت وما إلى ذلك مما

---

١ - المرجع السابق ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

٢- د/ تمام حسان ، البيان فى روائع القرآن ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

يعد من قبيل الانقطاع المؤقت لتوالى الأصوات التى تتكون منها الألفاظ . فالمد كالسكون والسكون كالسكوت وانقطاع الكلام، وقل ذلك عن الغنة لأنها « مد » مقيد بالنون ، وقل ذلك أيضا عن السكت وهكذا . فإذا قرأ القارىء مع الترتيل أتى بكل رتل وآخر وبينهما فترة انقطاع هى إما مد أو غنة أو سكت ألخ .. هذا النوع من الترتيل يضيف إلى إيقاع القرآن الكامن فى نصه إيقاعا آخر طارئا عليه من خلال الأداء والقراءة فإذا اجتمع الإيقاع الصوتى وذلك الإيقاع الترتيلى لم يكن للأذن إلا أن تستمع وتنصت وتستمتع بالجمال وسبحان الله تعالى إذ يقول لعباده المؤمنين : **﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون ﴾** (الأعراف ٢٠٤) .

الجرس الصوتى للحروف والمقاطع :

ومن الدراسات اللغوية التى اهتمت بالفواصل القرآنية فى العصر الحديث دراسة بعنوان « لغة القرآن الكريم فى جزء عم » لصاحبها الدكتور محمود نحلة لفت فيها الأنظار إلى ظاهرة الصوت المتكرر وعلاقته بالمعنى . فتكلم عن تكرار الصوت المفرد ثم عن تكرار الأصوات السابقة وما تحدثه من جرس ينهض بالمعنى ثم عن تكرار القالب الصوتى الذى تلذ به الآذان وتتأثر به القلوب فيقول :

أولا : الصوت المتكرر :

« تتخذ اللغة القرآنية أحيانا من الصوت المتكرر وسيلة بلاغية لتصوير الموقف وتجسيمه، والإيحاء بما يدل عليه معتمدة فى ذلك على ما تتميز به بعض الألفاظ من خصائص صوتية ، وما تشيعه بجرسها الصوتى من نغم يسهم فى إبراز المعنى المراد . وإنك لتجد القرآن الكريم يستخدم هذه

الوسيلة البلاغية باقتدار رائع، وإعجاز معجز ، فالصوت المفرد يختار بعناية، وتصاحبه أصوات أخرى قد تكون متقاربة المخارج إن احتاج الموقف ذلك، وقد تكون متباعدة المخارج إن كان التباعد أدل على المعنى ، وأكثر تصويرا له .

أنصت معى إلى الجرس الصوتى لحرف السين الذى يتكرر فى هذه السورة الكريمة :

﴿ قل أعـود برب الناس . ملك الناس . إله الناس. من شـر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ ، وأرهف سمعك بصفة خاصة إلى قوله تعالى **﴿ من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾** فحرف السين الذى تكرر فى هذه السورة صوت صامت مهموس لثوى احتكاكى، لايستطيع الإنسان أن ينطق به وهو مفتوح الفم ، بل إنه ليحدث فى نطق كثيرين له أن تلتقى الأسنان السفلى بالأسنان العليا (١) . وقد اختير هذا الصوت بصفة خاصة، لإبراز هذه الوسوسة التى يخافت بها أهل الجرائم والمكائد ، وما يلقيه الشيطان فى روع الإنسان ليزين له بذلك ارتكاب المعاصى ، وهو أدل بجرسه الصوتى الاحتكاكى الهامس على تصوير حالة الهمس الخفى ، وقد أعانته على ذلك بعض الأصوات الأخرى التى تقاربت معه مخرجا منها حرف الصاد المطبق الذى يشترك فى كل خصائصه الصوتية مع صوت السين، ويزيد عليه الإطباق (٢)، وهو يعطى جرسا أعلى وسط هذه السينات المتتالية . ويشترك معه أيضا صوت الفاء ، وهو صوت

---

١ - د. محمود السعران : علم اللغة ص ١٩٢ .

٢ - السابق ص ١٩٢ .

صامت مهموس شفوى سنى احتكاكى[1]، فهذه الأصوات الثلاثة تشترك فى صفتى الهمس والاحتكاك ، وتتقارب فى وضع اللسان عند اللثة أو الأسنان، وفى وضع الشفتين حال النطق بها، ومن الأصوات التى شاركت فى إبراز هذه « الوسوسة » صوت الواو - وهو صوت شبه صائت مجهور شفوى - حنكى قصى [2] - الذى يتردد بين السينات المتوالية بضم الشفتين ضمات متتابعة تكون ذات أثر كبير فى تصوير موقف التحريض الهامس على ارتكاب الآثام .

واستمع مرة أخرى إلى هذا التصوير الرائع لهول يوم القيامة الذى يختل فيه نظام الكون فتهتز الأرض وتنشق السماء، وترتعد القلوب ، ولاحظ تكرار صوتى الراء والفاء على وجه الخصوص . قال تعالى : ﴿**يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة**﴾ لعلك أحسست بهذه « الرجفة » التى تشيع فى نفسك ، وأنت تستمع إلى تكرار صوت الراء الذى تتابع فى نطقه طرقات اللسان على اللثة تتابعا سريعا يصور أبدع تصوير هذه الرعشة التى تنتاب الأرض والسماء ، يساعده فى ذلك صوت الفاء، وصوت الجيم وهو صوت صامت مجهور لثوى حنكى انفجارى احتكاكى مركب [3] ويسبقه صوت صائت طويل يبرز تكرار حرف الراء ويعطيه استمرار أكثر، وكثافة موسيقية أغزر، ثم ينقطع النفس، وينغلق مجرى الهواء حين النطق بالجيم ، ثم ينفتح مرة أخرى ليسمح بنطق صوت الفاء الذى يلتقط الصدى من الراء ليصور بجرسه

---

١ - د. محمود السعران : علم اللغة ص ١٩٠ .

٢ - السابق نفسه ص ١٩٨ .

٣ - السابق نفسه ص ١٩٤ .

الاحتكاكى المهموس حالة الاهتزاز.

وهذا هو القرآن الكريم فى موضع آخر من جزء عم يلجأ إلى تصوير « الحشر » فى يوم القيامة بترديد صوتى الحاء والشين تصاحبهما صوائت قصيرة متتابعة . يقول عز من قائل ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ كرر الاستماع إلى هذه العبارة القرآنية ، ولاحظ تكرار صوتى الحاء والشين ، وما يحدث فى الحلق من « حشرجة » أو « حشر » أو «تزاحم» فالحاء بجرسها الصوتى الذى يحدث احتكاكا فى الفراغ الحلقى لأعلى الحنجرة، ويضيق معه المجرى الهوائى ويرتفع الحنك اللين (١) ، والشين بما فيها من تفشٍ كما يقول ابن جنى ، وضيق بين مقدم اللسان ومؤخر اللثة ، وتقارب للأسنان العليا والسفلى ، واحتكاك ناتج من محاولة خروج العمود الهوائى الضيق من بين الأسنان (٢) ، ثم هذه الضمات المتوالية على الحاء الأولى والثانية ، والواو الأولى والشين الأولى ، ثم هذا الصائت الطويل فى (الوحوش) ، والانتقال من شبه صائت إلى صائت طويل يفرق بينهما حرف الحاء ، كل أولئك أسهم فى تصوير هذا الزحام الذى تتدافع فيه الوحوش .

ومثل ذلك أو قريب منه يمكن أن يلحظ فى قوله تعالى :

- ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد ﴾ .
- ﴿ ثم السبيل يسره ﴾
- ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ .
- ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ .

---

١ - د. محمود السعران : علم اللغة ص ١٩٥ .

٢ - السابق نفسه ص ١٩٣ .

- ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾

والأمثلة بعد على تكرار الصوت وأثره فى تصوير المعنى كثيرة ولكنا نجتزىء بما ذكرنا فهو يكفى فى البرهنة على هذه الوسيلة البلاغية التى إن أحسن استخدامها أتت بخير كثير .

ثانيا - تكرار أصوات سابقة :

لاتقتصر البلاغة القرآنية على تكرار الصوت المفرد للاستعانة بجرسه فى تصوير موقف ما تصويرا فنيا ، ولكنها تتعدى ذلك إلى تكرار أصوات متتابعة، قد ينتظم تتابعها ، وقد يختلف اختلافا يسيرا ، وهى فى النهاية تأتى بما لها من صفات صوتية خاصة للتعبير عن معنى معين ، وإبراز جوانبه المختلفة، وتصويره بجرس ألفاظه تصويرا موحيا مؤثرا .[1]

استمع إلى تكرار الأصوات فيما يأتى من تعبيرقرآنى بليغ : يقول جل شأنه :

﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ .

أتراك لا ترى فى تكرار هذا (الدك) أكثر من مجرد التوكيد ؟ ، أم ترى فى توالى الدك وتكراره تصويرا حسيا مجسما لدك أجزاء الأرض جزءا جزءا، وتكرار ذلك مرة بعد مرة حتى تفنى ، ثم اختيار الدك دون غيره من الأفعال يشعرك بأصواته الانفجارية التى ينحبس عند النطق بها الهواء انحباسا تاما ، ثم لايكاد ينساب حتى ينحبس فى صوت انفجارى آخر. ألا يشعرك هذا بالإحاطة بالأرض والإطباق عليها حتى لايفلت

---

١ - د. محمود السعران : علم اللغة ص ١٦٨ .

منهاجزء من الأجزاء حال هذا الدك المتوالى وهذا الانتقال من صوت الدال ذلك الصوت المجهور الصامت الذى ينحبس معه الهواء فترة من الزمن عند أصول الثنايا العليا ، ثم يترك فجأة ليعود إلى الانحباس مرة أخرى عند أقصى اللسان وأقصى الحنك اللين (١) للنطق بالكاف ألا يشعرك هذا بتكرار الضغط على الأرض حتى لا يبقى منها شىء .

وقل مثل هذا أو قريبا منه في قوله تعالى :

- **﴿ إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ .**

- **﴿ والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق ﴾ .**

- **﴿ فيومئذ لايعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ .**

على أن تكرار الأصوات فى هذه الأمثلة وفى كثير غيرها كان مع اتفاق المعنى ، ولكن القرآن قد يلجأ إلى تكرار أغلب الأصوات فى كلمتين متتاليتين ليحدث بينهما نوعا من الجناس الصوتى مع تغيير فى فونيم كل كلمة منها ليتغير تبعا لذلك المعنى ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :**﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾** فالمعنى هنا قد اختلف لوجود فونيم الهاء فى اللفظة الأولى ، واللام فى اللفظة الثانية وهما متباعدتان فى المخرج ، وهو ما أطلق عليه البلاغيون « الجناس اللاحق » . ومن الجناس الصوتى أيضا ما يسمونه الجناس الاستهلالى، وهو يتحقق حين تبدأ كلمتان أو أكثر بصوت واحد يتكرر وفى كل من الكلمتين المتتاليتين أو

---

١ - د. محمود السعران : علم اللغة ص ١٦٨ .

الكلمات المتالية فيحدث نوعا من النغم الموسيقى العذب بالتقاط صدى الصوت الأول وترديده، وقد ورد ذلك فى جزء عم فى كثير من المواضع نذكر منها قوله تعالى :

- ﴿ فى صحف (مكرمة) ﴾ (مرفوعة) ﴿ مطهرة ﴾ .
- ﴿ كراما كاتبين ﴾ .
- ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ - ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾
- ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ - ﴿ يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ﴾ .

ثالثا : تكرار القالب الصوتى : (١)

من السمات الواضحة للغة القرآنية فى جزء عم تكرار القالب الصوتى للتعبير الذى توضع فيه الألفاظ فى نظام دقيق فتجد له الأذن لذة ، وفى تكراره متعة تجعله قريبا إلى النفس ، سريع العلوق بالقلب ، سهلا فى حفظه وترداده. وهذا القالب الصوتى مقيس بدقة متناهية فى كثير من المواضع ، وهى دقة معجزة وباهرة . انظر إلى تكرار القالب الصوتى الذى تتطابق حركاته وسكناته وطوله فى هذه العبارات القرآنية البليغة :

- ﴿ والنازعات غرقا ﴾ .. ﴿ والناشطات نشطا ﴾ ﴿ والسابحات سبحا ﴾

﴿ فالسابقات سبقا ﴾ .

- ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ . ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾
- ﴿ وإذا البحار سجّرت ﴾ ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ .

---

١ - د محمود السعران . علم اللغة ص ١٦٩ .

- ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ و ﴿ إن الفجار لفى جحيم ﴾ .
- ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾
- ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ .

ويمكننا أن نحمل عليه - إذا تجاوزنا عن الفارق البسيط بين طول الصائت وطول الصامت - قوله تعالى :

- ﴿ إنا صببنا الماء صبا ﴾ ثم ﴿ شققنا الأرض شقا ﴾ .
- و ﴿ السماء ذات الرجع ﴾ ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ .

وقد أدرك بعض الشعراء ذوى الحس البيانى الرهيف مدى ما لهذا التكرار من جمال فنسجوا على منواله ، واحتذوا مثاله حذوك الشعرة بالشعرة كما يقولون . يقول البحترى :

فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فيك مَطْمَعًا وأقدم لما لم يجد عنك مَهْرَبًا (١)

والاستدلال بهذا البيت من الشعر لايسقط بحجة الوزن الشعرى، فقد يتفق الوزن الشعرى ويختلف (الكم) النغمى ، وقد استشهدنا به لتساوى وحداته الصوتية تساويا يكاد يكون تاما ، ونقول (يكاد) لأن المحدثين من اللغويين يرون فرقا فى الطول بين (فيك) و (عنك) ، وإن رأى العروضيون العرب غير ذلك . ونظيره ما ذكرناه من قوله تعالى :

﴿ إنا صببنا الماء صبا ﴾ ثم ﴿ شققنا الأرض شقا ﴾ .

---

١ - يحيى بن حمزة العلوى : الطراز ، الجزء الثالث (مطبعة المقتطف ١٩١٤) ص ٤٠ .

وقد تلجأ البلاغة القرآنية إلى تكرار القالب الصوتي الطويل مع الحرص الشديد على تطابق نظام ترتيب الكلمات في الجمل ، واختلاف يسير في الطول . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فأما من أعطى ، واتقى ، وصدّق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ﴾ .

﴿ وأما من بخل ، واستغنى ، وكذّب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ﴾ .

هذا بالإضافة إلى المطابقة الباهرة بين المعنيين.

وقد تلجأ إلى إعادة القالب الصوتي بعد فاصل كبير ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم ﴾

﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم﴾

جرس المقاطع الصوتية :(١)

وتناول الدكتور محمود نحلة الكلام على المقاطع الصوتية وأنها في اللغة العربية إما مقاطع قصيرة وإما طويلة وإما زائدة الطول وأنها منها المقفلة ومنها المفتوحة ولكل منها سماته الصوتية المتميزة قال :

« فإذا حاولنا الآن أن ننظر في استخدام القرآن الكريم – في جزء عمّ – لهذه المقاطع الصوتية استخداما فنيا ووجهنا بهذه القدرة الفنية المعجزة في توزيع المقاطع وترتيبها على نسق تنقطع دون البلغاء ، وتحار

---

١ – د / محمود نحلة ، لغة القرآن الكريم في جزء عمّ ص ٣٥٨ .

فيه الأفئدة والقلوب .

أنصت معى إلى استخدام القرآ الكريم للمقاطع المفتوحة على وجه الخصوص فى قوله تعالى : ﴿ **يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه** ﴾ ، ولا تحرك لسانك لتعجل بها ، ولكن أعطها حقها من القراءة المستأنية المتأملة ، ثم حاول معى أن تتمثل ما تعبر عنه هذه المقاطع، وربما أعاننا على تفهم ذلك أن ننقل ما قاله الأستاذ الإمام محمد عبده فى تفسيرها قال : « يأيها الإنسان السادر فى غلوائه، الصادر فى عمله عن أهوائه الغافل عن مصيره ، الجائر عن جادة الحق فى مسيره : لاتظن أنك خالد مقيم فيما أنت له جاهد، وأنك إن آذيت الخلق وازدريت الحق ، واغتررت بالحول والقوة، وسلمت عنانك للشهوة، ضمنت لنفسك التمتع بما تكسب ، والبقاء فيما فيه تتعب وتنصب كلا إنك مجد فى السير إلى ربك ، وإن كنت لاتشعر بجدك أو إن شعرت ، لهوت عنه، وكل خطوة فى عملك فهى فى الحقيقة خطوة إلى أجلك » (١).

هذا التقريع للإنسان الغافل، وإشعاره بأن لاسبيل إلى الفكاك من المصير المحتوم قد عبرت عنه أصدق تعبير هذه المقاطع المفتوحة المكونة من صوائت قصيرة، وصوائت طويلة وختمت بمقطع زائد الطول ، والتى غلبت عل يهذه الآية الكريمة كما يتضح من التحليل الآتى :

يا / أَيـ ى / يـُ / هـَ ل / إِ ن / سا / نُ / إِ نْ / ن
ـَ / كَ / كا / د ـ / ح ـُ ن / إِ / لى / ر ـَ ب / بِ / كَ

---

١ – محمد عبده : تفسير جزء عمّ ص ٤٠ .

/ كَـ ـ / كَـ ـ د / حَ ـ ن / فَ ـ / مُـ ـ / لا / قيه / .

فالمقاطع المقفلة فى هذه الآية الكريمة لاتزيد على ثمانية مقاطع من مجموع المقاطع وعدتها أربعة وعشرون مقطعا أى أنها ثلث عدد المقاطع، وباقى المقاطع مفتوحة بين القصيرة والطويلة والزائدة الطول . فلنعد قراءة الآية الكريمة ولنلاحظ بصفة خاصة المقاطع الطويلة (يا – سا – كا – لى – لا – قيه) ، ولنحاول أن نربط بينها وبين الزمن الذى يستغرقه نطق هذه المقاطع، والزمن الذى يستغرقه الإنسان فى الكدح والجهد فى التحصيل، أى أنه مهما طال الزمن ، ومهما بذل من مجهود : فلا بد من لقاء ،وانظر إلى هذين المقطعين المقفلين اللذين جاءا وسط عدد من المقاطع المفتوحة (كَـ ـ د / حَ ـ ن) ليردد الصدى الصوتى للفظة (كادح) وتأكيده ، وتبيين شدة المجهود الذى يبذل فيه.

ولننظر الآن فى استخدام التعبير القرآنى البليغ لهذا النوع من المقاطع المفتوحة للتعبير عن لون آخر من المعانى يقول عز من قائل :

﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ﴾ .

أرأيت إلى هذا التعبير عن موقف الندم الذى يصيب الإنسان ولات حين مندم، كيف عبرت عنه اللغة القرآنية بهذه المقاطع المفتوحة :

يـ ـَ و / مـ ـَ / ئـ ـ / ذ ـ ن : يـ ـَ / تـ ـَ / ذ ـَ ك / كَ ـ / رُ ـ ل / إ ـ ن / سا / نَ ـ / وَ ـ / ا ـَ ن / نى / لَ ـ / هـ ـُ ذ / ذ ـ ك / رى / يـ ـَ / قو / لُ ـ / يا / لَ ـ ي / تـ ـَ / ني / قَ ـ د / دَ ـ م / تُ ـ / ل ـ / حَ ـ / يا / تي / .

فالمقاطع المقفلة أيضا لاتزيد على ثلث المقاطع فى هذه الآية الكريمة ، وسائرها مقاطع مفتوحة. وانظر كيف توالت المقاطع الطويلة (سا / رى / قو / يا / نى / يا / تى /) وكأنها نوح النادم الآسى على ما فرط فى جنب الله . (يا / نى / يا / تى /) وكيف يتراوح المد بالألف مع المد بالياء ليصور حالة الجزع والندم التى يرتفع فيها الصوت المتحسر ، ثم لا يلبث أن يتراخى وينحدر ، ليعود فيرتفع ممتدا إلى أعلى ويتراخى منخفضا إلى أسفل . وبين هذه المقاطع الطويلة المفتوحة يرد مقطعان مقفلان فى قوله (قدمت) (ق ـ د / د ـ م / ت ـ /) يعبران عن سبب الندم الذى يتذكره الإنسان فيضغط عليه ليقرع نفسه به، ولتحقيق ذلك اختار القرآن الكريم أن يكرر صوت الدال المجهور الذى ينحبس الهواء احباسا تاما حال النطق به بأن يلتقى طرف اللسان بأصول الثنايا العليا مدة من الزمن ، ثم ينفصل العضوان انفصالا فجائيا ليحدث هذا الصوت [1] فيكون خير تعبير عن هذا الضغط المتتابع على ما كان ينبغى أن (يقدمه) لحياته .

وربما استعملت هذه المقاطع المفتوحة فى لون آخر من التعبير الهادىء المريح الذى تطرب له النفس ، وتترنم به كما فى قوله تعالى:

﴿ وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية ، لاتسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة ﴾.

ألا ترى معى أن هذه المقاطع المفتوحة التى تنتهى بصوائت طويلة

---

١ - د. محمود السعران : علم اللغة ص ١٦٨ .

تعبر عن هذا النعيم الهادىء الذى تتعدد فيه وسائل المتعة والراحة، التى نجحت هذه « المدّات » فى تصويرها إلى حد كبير : « جو ـ تا ـ ها ـ را ـ عا ـ لا ـ ها ـ لا ـ ها ـ جا ـ فو ـ وا ـ ضو ـ ما ـ فو ـ را ـ ثو » .

وها هو القرآن الكريم يعبر بالمقاطع (المقفلة) أصدق تعبير عن معنى العقاب الصارم الذى ينزل بالظالمين الكافرين الجاحدين نعمة الله وفضله فى قوله تعالى :

﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ .

(ص ـَ ب) ـ (ل ـَ ى) ـ (هـ ـِ م) ـ (ر ـَ ب) ـ (س ـَ و).

ويكاد هذا التقطيع يبرز لنا كيف ينصب عليهم العذاب انصبابا فى شدة وعنف وتوال، وتكرار . (لاحظ اتفاق المقاطع السابقة اتفاقا تاما فى نوع المقطع وتكراره) .

وانظر أيضا كيف عبر القرآن الكريم بهذه المقاطع المقفلة عن الحزم القاطع والجد الفاصل الذى لامجال فيه لتهاون ولا تجوز فى قوله تعالى :

﴿ إنه لقول فصل . وما هو بالهزل ﴾ .

(ا ـِ نْ ـ ق ـَ وْ ـ ل ـُ نْ ـ ف ـَ ص ـ ل ـُ نْ ـ ب ـِ لْ ـ هـ ـَ ز).

وكلها من المقاطع المقفلة الطويلة ، وهى حادة حاسمة فى موقف الجد والفصل وهى خير تعبير عنه . وقد لجأ التعبير القرآنى إلى استخدام مقطع مفتوح ينتهى بصائت طويل وسط هذه المقاطع المقفلة هو (ما) يعبر عن موقف النفى العام الشامل للهزل .

على أننا لو شئنا أن نتبع الاستخدام الفنى للمقاطع فى القرآن لأتينا بأمثلة كثيرة تدل على ما قررناه من هذه القدرة المعجزة على استخدام المقاطع استخداما فنيا ، ولكننا نجتزىء بهذا القليل عن الكثير ، ولعله يجزى ء » (١).

ولا يخفى علينا ذلك الدور الذى تؤديه الفاصلة التى هى خاتمة المقطع الصوتى فى تحقيق النسق الموسيقى سواء فى المقطع القصير أو المقطع الطويل أو المقطع الزائد الطول .

الخروج على رتابة الإيقاع :

وفى شأن الفواصل يقول الدكتور / محمود نحلة :

« وقد أنعمت النظر فى استخدام القرآن الكريم لنظام الفواصل ، وانتهيت بعد طول الروية والأناة إلى أن أهم سمات الاستخدام القرآنى للفواصل ما يأتى :

أولا : الخروج على رتابة الإيقاع (كسر الإيقاع) :

قررنا قبلا أن التعبير القرآنى البليغ قد يلجأ إلى تكرار القالب الصوتى ترديدا وتنغيما ، ولكن هذا التكرار لاينتهى به إلى رتابة الإيقاع، بل تقع عليه فى تضاعيف الكلام وأطوائه كما تقع على الدر النضيد ، ثم يكسر التعبير القرآنى رتابة الإيقاع الذى قد ينتج عن تكرار القالب الصوتى تكرارا زائدا مما قد يبعث الملالة والسآمة فى نفس السامع أو القارىء حين تتعود الأذن نمطا مألوفا من الإيقاع الموسيقى فتقل متعة النفس به .

---

١ - د / محمود نحلة ، لغة القرآن الكريم فى جزء عمّ .

والقرآن الكريم حين يلجأ إلى كسر هذه الرتابة يثرى التعبير بأنغام موسيقية متنوعة، تتحدر فيها موجات النغم، وتتنوع أصداؤه، وتتصاعد درجاته، وقد لاحظت أنه يلجأ فى ذلك إلى وسيلتين :

إحداهما : المراوحة بين القرائن فى الكم الموسيقى ، فنجده يأتى بالفواصل المتوسطة الطول ، ويتبعها بالفواصل القصيرة ، ثم بالطويلة ، ثم يعود إلى القصيرة أو المتوسطة ، وهكذا ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا. وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا. وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا. لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا ، إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا . إن جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لابثين فيها أحقابا .لايذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا ... ﴾ .

فالأذن الموسيقية كما يقولون لاتجد أيسر عناء فى إدراك هذا النغم المتنوع الذى تختلف موجاته، وتتعدد إيقاعاته .

الثانية : التصاعد النغمى ، ونعنى به البدء بالفواصل القصيرة ، وإتباعها بفواصل أطول فأطول . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا. لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لايملكون منه خطابا . يوم

يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ .

ومنه أيضا قوله جل وعز :

﴿ والعصر - إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

وقد يتوازن الإيقاع ويتقارب، ولكن أنغامه تختلف ، ولايمكن أن تحس فيه بشيء من الرتابة ، وذلك متحقق في سورة الشرح التي تتقارب فيها القرائن ، ويتوازن الإيقاع الموسيقى وبخاصة في الجزء الأخير منها ، ولكنك لاتجد فيها أثرا لرتابة الإيقاع : (١)

﴿ ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى انقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا، فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾.

ثانيا : التوازى :

التوازى بمفهومه البلاغى - وهو اتفاق أواخر القرائن فى الوزن والروى - سمة واضحة فى الفواصل القرآنية (فى جزء عمّ) فهو متحقق فيما يزيد على أربعين موضعا، وهو بما يحمل من توافق صوتى بإعادة القالب الصوتى الأخير، وتكرار حرف الروى يؤدى إلى إثراء التعبير بهذا الرنين الموسيقى المحبب الذى تنشط له النفس ، ولا يقف البيان القرآنى المعجز عند هذا الحد ، بل يزيد عليه فى بعض المواضع لزوم

---

١ - المرجع السابق نفسه ص ٣٦٧ .

مالايلزم. وبعض المحسنات الصوتية الأخرى مثل الفواصل الداخلية ونسق التعبير . (١)

فمما وردت فيه الفواصل القرآنية متفقة الأواخر فى الوزن والروى قوله جل وعز :

- ﴿ وجعلنا سراجا وهاجا. وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجا ﴾ .
- ﴿ حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا ﴾
- ﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة ﴾
- ﴿ بأيدى سفرة . كرام بررة ﴾ .
- ﴿ فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا ﴾
- ﴿ ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره ﴾.
- ﴿ والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع ﴾ .
- ﴿ إنه لقول فصل . وما هو بالهزل ﴾ .
- ﴿ فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة ﴾ .
- ﴿ إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم ﴾
- ﴿ فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾
- ﴿ والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا. فالمغيرات صبحا ﴾ .
- ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور ﴾

ومما وردت فيه الفواصل القرآنية متفقة الأواخر فى الوزن والروى، وزادت عليه لزوم مالا يلزم محدثة نوعا من الجناس الصوتى البديع :

---

١ - المرجع السابق نفسه ص ٣٦٨ .

- ﴿ فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس ﴾ .
- ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر ﴾ .
- ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق ﴾ .
- ﴿ قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق ﴾ .

ومما لجأ فيه البيان القرآنى إلى الفواصل الداخلية قوله تعالى :

- ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، منفكين، حتى تأتيهم البينة ﴾ .
- ﴿ ويل لكل همزة ، لمزة ﴾ .

وقد يأتى القرآن الكريم بالقرينة على نسق قرينة سابقة عليها فى ترتيب الكلمات مع اتفاق أواخر القرائن فى الوزن والروى . ومن ذلك قوله جل وعز :

- ﴿ وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما ﴾ .
- ﴿ فأثرن به نقعا. فوسطن به جمعا ﴾ .

ثالثا : التوازن : (١)

توازن الفواصل فى مصطلح البلاغيين مقصود به اتفاق أعجاز القرائن فى الوزن دون الروى ، وإذا كان اتفاق الوزن والروى فى بعض الفواصل يعطى هذا الثراء الموسيقى الذى أشرنا إليه . فإن الاحتفاظ بالوزن ، والتخلى عن الروى فى بعض الأحيان يكون له من الحسن مثل سابقه ، إذا حدثت المراوحة بينهما، باعتياد الأذن على نهاية صوتية واحدة لكل قرينة قد يفقدها عنصر المفاجأة التى توقظ النفس وتنبه

---

١ - المرجع السابق نفسه ص ٣٦٩ .

الذهن، ولا نريد بذلك أن نثير مناقشة حول الروى فى الشعر وأهميته أو قيمته الفنية، ولكنا نقرر هنا أن النمط الأعلى للبيان المتمثل فى القرآن الكريم لم يلتزم رويا واحدا لكل فواصله، وإنما يلتزم به حين يكون التزامه أروع وأعجب، ويتخلى عنه حين يكون التخلى عنه ضرورة فنية لازمة لكسر الرتابة وتحقيق التنوع النغمى .

وإنك لتجد البيان القرآنى يخرج من الفواصل المتوازية إلى المتوازنة أو المطرفة، ثم يعود إلى المتوازية ، ويخلط بين أنغامها المتنوعة، وأصواتها المختلفة والمؤتلفة ليقدم لنا فى النهاية لحنا موسيقيا عذبا ، تتضافر نغماته فى إيراد هذا اللون من الجمال الفنى . (١)

ونريد الآن أن نعرض بعض الفواصل المتوازية التى يتحقق فيها الوزن دون الروى ، مع ملاحظة أن هذا اللون أقل شيوعا من اللون الأول ، وقد نلحظ أن التعبير القرآنى يصحب ذلك فى بعض المواضع بتكرار أصوات سابقة أو استخدام أصوات متقاربة المخارج . ومن ذلك قوله تعالى :

- **﴿ أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا ﴾ .**
- **﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا . وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾.**
- **﴿ فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة ﴾ .**
- **﴿ ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة ﴾ .**
- **﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾.**
- **﴿ يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت**

---

١ - المرجع السابق نفسه ص ٣٧٠ .

أبوابا ﴾ .

- ﴿ وإذا البحار سجّرت . وإذا النفوس زوّجت ﴾ .
- ﴿ وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ .
- ﴿ يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها ﴾ .
- ﴿ وإنّ عليكم لحافظين . كراما كاتبين ﴾ .

رابعا : التطريف :

التطريف في مصطلح البلاغيين ما اتفقت فيه الأعجاز في الروى دون الوزن ، والتعبير القرآني حين يستخدم هذه السمة في الفواصل لايكتفى بمجرد التشابه في حروف الروى. ولكنك تقع فيه على وسيلة مصاحبة للروى هي ما يمكن أن نسميها « التشابه المقطعى » ، فالفواصل التى لاتتفق في الوزن تتفق في أكثر المقاطع، ويقع الخلاف بينها في مقطع واحد غالبا لتحقيق التنوع النغمى الذى أشرنا إليه من قبل . فمن ذلك قوله تعالى :

﴿ إنهم كانوا لايرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾ .

فالقرينتان تنتهيان بلفظين مشتركين في الروى دون الوزن كما يلاحظ البلاغيون ، ولكنا نزيد عليهم أن التعبير القرآني يحقق في هذا النوع لونا من التناسب أو التشابه المقطعى، فاللفظة الأخيرة من القرينة الأولى تتكون من مقطع قصير (صامت + صائت قصير) هو (حـِ ـ) ومقطع طويل (صامت + طائت طويل) هو (سا)، ثم مقطع طويل آخر (صامت + صائت طويل هو (با) . واللفظة الأخيرة من القرينة

الثانية تشترك مع اللفظة الأولى فى المقطعين الأخيرين فكلا المقطعين الأخيرين فى الثانية طويل يتكون من (صامت + صائت طويل) وهما (ذا) (با) وتختلف اللفظتان (حسابا) و (كذابا) فى المقطع الأول فقط فهو فى الثانية (طويل) ويتكون من صامت + صائت قصير + صامت (كـِ ـ ذْ) وفى الأولى قصير (حـ ـِ) أى أن الزيادة طفيفة . وهى تقع فى زيادة صوت صامت فى اللفظة الثانية بعد الصائت القصير . ولعل هذا يفسر عدول القرآن الكريم عن استخدام المصدر الشائع للفظة كذّب وهو (تكذيب) واستخدام (كِذّابا) بدلا منه .[1]

وقد يحدث العكس فتكون الزيادة فى اللفظة الأخيرة من القرينة الأولى كما فى قوله تعالى :

﴿ إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا ﴾ .

فاللفظة الأخيرة من القرينة الأولى تتكون من ثلاثة مقاطع طويلة، والثانية تتكون من مقطع قصير ومقطعين طويلين .

ومن الإعجاز فى التعبير القرآنى أن تختلف الكلمة الأخيرة من كلتا القرينتين فى الوزن ، ولكنهما تتفقان اتفاقا تاما فى المقاطع ، ومن ذلك قوله جل وعز :

- ﴿ الذى جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده ﴾ .

فاللفظة الأخيرة من القرينة الأولى تتألف من : مقطع طويل (ع ـ

---

١ - المرجع السابق نفسه ص ٣٧١ .

دْ) ، ومقطع قصير (دـَ) ثم مقطع طويل (دـَ هْ) ، واللفظة الأخيرة من القرينة الثانية تتألف من مقطع طويل هو (أـَ خْ) ومقطع قصير هو (لـَ) ثم مقطع طويل (دـَ ه). والمقطعان الطويلان في كلتا القرينتين مقفلان . وليس وراء ذلك تطابق في المقاطع .

ومثل هذه المطابقة التامة تجدها في قوله تعالى :

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها. وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ .

فالكلمتان الأخيرتان في القرينتين الأولى والثانية تتألف كل منهما من أربعة مقاطع :

طويل مقفل + طويل مفتوح + قصير + طويل مفتوح .

(زـِ لْ / زا / لـَ / ها) (أـَ ثْ / قا / لـَ / ها) .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إنه هو يبدئ ويعيد . وهو الغفور الودود ﴾ .

(يـُ / عيد /) (وـَ / دود) في حالة الوقف ولا بد منه في السجع .(1)

وقليلا ما تزيد إحدى الفاصلتين في القرينتين مقطعا كاملا عن الأخرى وذلك متحقق في نحو قوله تعالى :

﴿ وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ﴾ .

(مـُ سْ / فـِ / رـَ هْ) (مـُ سْ / تـَ بْ / شـِ / رـَ ه).

1 - المرجع السابق نفسه ص ٣٧٢ .

فقد زادت الكلمة الثانية مقطعا طويلا كاملا هو (تَ ـ بْ) ولايخفى أن لهذه الزيادة مغزاها وهى تصوير الاستبشار (الزائد) الذى يصيب وجوه المؤمنين .

خامسا : الترسّـــــل : (١)

ونعنى به عـدم التـقـيـد بوزن ولا روى فى الفـواصل ، وهو أقل السمات ظهورا فى جزء عمّ ، ولكن البيان القرآنى الأعظم لايتركه عاطلا دون تحقيق قدر كبير من الانضباط الموسيقى يتمثل فى اتقان المقاطع وتطابقها تطابقا تاما فى كثير من الأحيان أو تناسبها وتشابهها فى أحايين أخرى .

فمن الترسّل فـى الفواصل الذى اتفقت مقاطعه وتطابقت تطابقا تاما قوله تعالى ﴿ **وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا** ﴾ .

فكل لفظة أخيرة فى القرائن السابقة تتطابق مقاطعها تطابقا كاملا:

سباتا : (سُ ـ / با / تا /) (قصير + طويل + طويل)

لباسا : (ل ـ / با / سا) (قصير + طويل + طويل)

معاشا : (مَ ـ / عا / شا) (قصير + طويل + طويل)

شدادا: (شِ ـ / دا / دا) (قصير + طويل + طويل)

وهذا انضباط باهر فى (الكمّ) النغمى وزمن النطق بهذه الألفاظ

---

١ - المرجع السابق نفسه ص ٣٧٣ .

وهو يغنى فى كثير عن وحدة الوزن والروى .

ومن الفواصل التى تقاربت فيها المقاطع وتناسبت دون أن تتطابق تطابقا كاملا قوله تعالى : ﴿ **لنخرج به حبا ونباتا . وجناتٍ ألفافا . إن يومَ الفصل كان ميقاتا** ﴾ .

نباتا : (ن ـ با / تا) (قصير + طويل مفتوح + طويل مفتوح)

ألفافا : (أ ـ / فا / فا) (طويل مقفل + طويل مفتوح + طويل مفتوح)

ميقاتا : (ميـ / قا/ تا) (طويل مفتوح + طويل مفتوح + طويل مفتوح)

فأنت ترى أن الاختلاف طفيف . وربما عمد إليه القرآن تحقيقا للتنوع الموسيقى .(١)

* * *

١ - المرجع السابق نفسه ص ٣٧٤ .

الفصل الرابع
معارضة الفواصل
و
القول بالصَّرْفة

فيه :

- تحدى القرآن .
- معارضة الفواصل .
- القول بالصَّرْفة .
- القرآن المعجزة الخالدة .

تحـدى القـرآن

أثارت الفواصل القرآنية حفيظة مشركى العرب عندما سمعوا القرآن الذى جاء به محمد ﷺ ، حيث قد ظهر عجزهم واضحا أمام هذا الجديد الوافد عليهم من الكلام العربى البليغ بفواصله القوية الممتنعة ، الذى جاءهم به رسول رب العالمين ، واستكثروا على النبى ﷺ أن يأتى هو به من دونهم ، فقال المشركون لو أن هذا القرآن نُزِّل على غيره من أصحاب المال والسلطان من عظمائهم ، ﴿ **وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ (الزخرف ٣١) . يعنون «الوليد بن المغيرة فى مكة» أو «عروة بن مسعود الثقفى» فى الطائف ، ظناً منهم أن العظيم هو الذى يكون له المال والجاه ، أما محمد فهو يتيم فقير ، ولهذا رد عليهم ربنا تبارك وتعالى بقوله : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾ حتى يقترحوا أن تكون النبوة لفلان الغنى أو لفلان الكبير من الناس ؟! .

وكان القرآن يتولى عن النبى ﷺ الرد عليهم فى كل ما اتهموه به من الصفات فمرة قالوا شاعر ومرة قالوا مجنون ومرة قالوا ساحر ، على الرغم من أنهم كانوا يعلمون أنه ليس هناك من بينهم من هو أعظم نفسا وأسمى روحا من محمد ﷺ . ولكن الغيظ ملأ قلوبهم واستولى على نفوسهم حين جاءهم محمد بما يسفه أحلامهم ويزرى عليهم عبادتهم الأصنام من دون الله الواحد القهّار .

ولذلك نجد الفواصل فى القرآن المكى متوالية متلاحقة تهز كيانهم وتزلزل كفرهم وعنادهم ، لتستأصل نوازع الشر من صدورهم وتدفعهم دفعا إلى الدين الجديد وإلى الشريعة السديدة ، وتهديهم سبيل الرشاد بعد

الضلال .

أما الفواصل فى القرآن المدنى فجاءت غالبا فضفاضة متباعدة . لأن الأمر أصبح أمر تشريع وتفصيل ، والفواصل فى القرآن مدنية ومكية أحدثت فى نفوسهم دويا رهيبا مهيبا ، لأنهم لم يستطيعوا حيالها مقاومةً أو تكذيبا ، فهى من واقع كلامهم ومن نهج أساليبهم ، حتى خيّل لبعضهم أنهم باستطاعتهم محاكاتها والإتيان بمثلها فجاء عنهم حين سمعوا القرآن من النبى ﷺ أنهم **﴿ قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلاّ أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون ﴾** (الأنفال ٣١ - ٣٣) .

إنهم قالوا ذلك مكابرة منهم وعنادا ولكنهم فى حقيقة شعورهم أنهم لايستطيعون . وإلا فما الذى كان يمنعهم من المقالة ، وهم لو استطاعوا لما تأخروا ، وما الذى كان يمنعهم وقد تحداهم القرآن عشر سنين ، وقُرِّعوا على العجز ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوه ، ثم هم يطلبون لأنفسهم وقوع العذاب بهم ، وهذا من فرط جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ، وهذا تهكم منهم واستهزاء ، ولكن الله سبحانه قد جرت سنته وحكمته ألاّ يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها ، قال ابن عباس : لم تعذّب أمةّ قط ونبيها فيها [1] ، فهم يستعجلون العذاب والله لايعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرونه ويستمطرون رحمته .

---

١ - تفسير الصابونى ج ١ / ٥٠٢ .

ولعل فاصلة الآية ﴿ .. وهم يستغفرون ﴾ تحبب إليهم الدعوة إلى التوبة وطلب المغفرة لأن الله رحيم بعباده .

• قال الجاحظ : بعث الله محمداً ﷺ أكثر ماكانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحكم ماكانت لغةً ، وأشدَّ ماكان عُدَّة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ؛ فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العذرَ وأزال الشبهة وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف . فنصب لهم الحرب ونصبوا ، وقتل من عليِّهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة ؛ أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدِّياً لهم بها ، وتقريعاً لعجزهم عنها ، تكشَّف من نقصهم ماكان مستورا ، وظهر منه ماكان خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لايمكننا ، قال : فهاتوها مفتريات . فلم يرُمْ ذلك خطيبٌ ولا طمع فيه شاعر ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدل ذلك العاقلَ على عجز القوم ، مع كثرة كلامهم ، واستجابة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم ؛ وكثرة شعرائهم ؛ وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرةً كانت أنقضَ لقوله : وأفسد لأمره وأبلغ فى تكذيبه ؛ وأسرع فى تفريق أتباعه من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذى لايخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والعقل بطبقات ؛

ولهم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ، ثم تحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم . فمحال ـ أكرمك الله ـ أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر ، والخطأ المكشوف البيّن مع التقريع بالنقص ، والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفةً ، وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما أنه محالٌ أن يطبقوا ثلاثًا وعشرين سنة على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة ، فكذلك محالٌ أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه ، وهم يبذلون أكثر منه (١) .

قال الصابونى :

« التحدى بعشر سور جاء بعد التحدى بالقرآن الكريم ، فلما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحداهم بعشر سور ، ثم لما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة من مثله فى البلاغة والفصاحة والاشتمال على المعانى والأحكام التشريعية وأمثالها ، وهى الأنواع التسعة وقد نظمها بعضهم بقوله :

أَلاَ إنّما القـــرآنُ تسعـةُ أحـْرفٍ سأُنْبيكَهَا فى بيت شعرٍ بلا مَلَلْ
حلال ، حرام ، محكم ، متشابه بشير، نذير ، قصة ، عظة ، مَثَلْ

قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدّت

---

١ - الرافعى ، إعجاز القرآن ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

للكافرين ﴾ (البقرة ٢٣ - ٢٤) .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : « شرع تعالى فى تقرير النبوة ، بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو ، فقال مخاطباً للكافرين : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزّلنا على عبدنا ﴾ ، يعنى محمداً ﴿ فأتوا بسورة ﴾ من مثل ماجاء به ، وإن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ماجاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لاتستطيعون ذلك.

وقد تحداهم الله تعالى بهذا فى غير موضع من القرآن، فقال فى سورة القصص/٤٩ ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتّبعْهُ إن كنتم صادقين ﴾ .

وقال فى سورة سبحان /٨٨ : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ .

وقال فى سورة هود/١٣ : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

وقال فى سورة يونس/ ٣٧ - ٣٨ : ﴿ وماكان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديقَ الذى بين يديه وتفصيلَ الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين.أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

وكل هذه الآيات مكية ، ثم تحداهم بذلك أيضا فى المدينة ، فقال فى هذه الآية : ﴿وإن كنتم فى ريب﴾ ، أى : شك ﴿ مما نزلنا على عبدنا ﴾، يعنى: محمداً ﷺ ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ . يعنى : من

مثل القرآن .. وقد تحداهم بهذا فى مكة والمدينة مرات عديدة ، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ، ومع هذا عجزوا عن ذلك .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ، و ﴿ لن ﴾ ، لنفى التأبيد ، أى : ولن تفعلوا ذلك أبداً . وهذه أيضا معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً ، مُقْدماً غير خائف ولا مشفق ـ أن هذا القرآن لا يُعَارَضُ بمثله أبداً ، وكذلك وقع الأمر، لم يُعَارَض من لدنه إلى زماننا هذا ، ولايمكن ، وأنى يتأتى ذلك لأحد ، والقرآن كلام الله خالق كل شيء ، وكيف يُشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ؟![1]

« ولم يكن هذا القرآن الذى تحداهم به مؤلَّفاً من غير حروف لغتهم التى رضعوا لبَانَهَا صغارا ، وارتاضوا أنفسهم على أدبها ـ شعراً ونثراً ـ كباراً ، وقد ذكر الله عز وجل فى مطلع سور من كتابه حروفاً مُقَطَّعَةً «للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ، وهى فى متناول المخاطبين به من العرب ، ولكنه ـ مع هذا ـ هو ذلك الكتاب المعجز ، الذى لايملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله ، الكتاب الذى يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدى جواباً .

والشأن فى هذا الإعجاز هو الشأن فى خلق الله جميعا ، وهو مثل صنع الله فى كل شيء وصنع الناس »[2] .

وقد بيَّن الله عز وجل فى مواضع كثيرة من كتابه ؛ أن هذا الكتاب

---

١ ـ عمدة التفسير ، وهو مختصر تفسير ابن كثير للعلامة أحمد محمد شاكر ١/١١٧ .

٢ ـ أبوعبدالله محمد بن سعيد بن رسلان ، فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين ، نشر دار العلوم الإسلامية بالقاهرة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م ، ص ٨ .

عربيٌّ ، وأنه نزل بلسان العرب الذى كانوا به ينطقون ، وأن هذا الكتاب ليس أعجمياً ، بل هو قرآنٌ عربيٌّ مبينٌ .

وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربّى مبين ﴾ (الشعراء ١٩٢-١٩٥).

وقال تعالى: ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ (يوسف ٢) .

وقال تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعَلِّمُهُ بشر لسان الذى يُلْحِدُونَ إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ (النحل ١٠٣) .

قال الشنقيطى رحمه الله : « بيّن جل وعلا كذبهم وتعنتهم فى قولهم : ﴿ إنما يُعَلِّمُهُ بشر ﴾ ، بقوله : ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ أى : كيف يكون تعلمه من ذلك البشر ، مع أن ذلك البشر أعجمى اللسان ، وهذا القرآن عربيٌّ مبين فصيح ، لا شائبة فيه من العُجْمَة ؟! هذا غير معقول .

وبيّنَ شدة تعنتهم أيضا بأنه لو جعل القرآن أعجمياً لكذّبوه أيضا ، وقالوا : كيف يكون هذا القرآن أعجمياً مع أن الرسول الذى أنزل عليه عربيٌّ ؛ وذلك فى قوله : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجَميًا لقالوا لولا فُصِّلَت آياته أأعجمى وعربى ﴾ (فصلت ٤٤) ، أى : أقرآنٌ أعجميٌّ ، ورسول عربيٌّ؟! فكيف ينكرون أن القرآن أعجمى والرسول عربى ، ولا ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمى ، مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربى؟؟ .

كما بيّن تعنتهم أيضا بأنه لو نزل هذا القرآن العربى المبين ، على أعجمى فقرأه عليهم عربيا لكذبوه أيضا ، مع ذلك الخارق للعادة ؛

لشدة عنادهم وتعنتهم ، وذلك في قوله : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين ﴾ (الشعراء ١٩٨ - ١٩٩).

وقوله تعالى : ﴿ يُلْحِدونَ ﴾ ، أى : يميلون عن الحق ، والمعنى : لسان البشر الذى يلحدون ـ أى : يميلون ـ قولهم عن الصدق والاستقامة إليه ، أعجمى غير بيِّن ، وهذا القرآن لسان عربى مبين ، أى : ذو بيان وفصاحة » [1]

وقال القرطبى رحمه الله : « يقال : رجل أعجم وأعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً ، ورجل عجميٌ وإن كان فصيحاً ، ينسب إلى أصله » [2] .

وقال تعالى : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾ (فصلت ٣) .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾ (طه ١١٣) .

وقال تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾ (الزمر ٢٧ - ٢٨) .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾ (الشورى ٧) .

---

١ ـ أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطى ٣/٣٢٧ .

٢ ـ تفسير القرطبى ٤٨٥٥ .

هذا بيان ربنا سبحانه أن القرآن العظيم إنما نزل بلغة العرب ، وبلسانهم ، فاجتمع من هذا ومن دعوته إلى التدبُّر : أن الدعوة إلى المعرفة بلغة العرب ما تزال قائمة .

أقول هذا لأنه ربما قال قائل : إن التدبُّر فيه هو النظر فى قوانينه التى التى قنّنها ، ووسائل الإصلاح التى فصّلها ، والحدود التى حدّها ، والشرائع التى شرعها ، وآفاق السموات والأرض التى جلاّها ، إلى غير ذلك من علومه وفنونه ، وهذا ممكن للعربىّ والعجمىّ من غير كبير فارق.

نعم ، ربما قال قائل ذلك ، فأقول : إن القوم الذين نزل القرآن بلغتهم كانوا عربا جرى القرآن فى مقتضى قانون لغتهم ، وتحدّاهم أن يأتوا بمثله ، فعجزوا ، ويعجز من بعدهم من بعدهم أبداً ؛ لأنّ الإعجاز بالتحدى لايزال قائما ، ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (الإسراء ٨٨) .

وأيضا ، فالسور الأولى التى أنزلت بمكة فى أول العهد بنزول الوحى كانت غير منطوية على نظم تشريعية ، ولا قوانين تنظيمية ، وإنما لَحَظَ أولئك العرب الإعجاز فى نظم هذا القرآن نفسه .

وعلى قدر المعرفة بلغة العرب تكون المعرفة بفضل القرآن وعُلُوّ شأنه ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى : : « وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب ، فعرف علم اللغة ، وعلم العربية ، وعلم البيان ، ونظر فى أشعار العرب وخطبها ومقاولاتها فى مواطن افتخارها ، ورسائلها ، وأراجيزها ، وأسجاعها ؛ فعلم منها تلوين الخطاب ومعدوله ، وفنون

البلاغة وضروب الفصاحة ، وأجناس التجنيس، وبدائع البديع ، ومحاسن الحكَم والأمثال، فإذا علِمَ ذلك ونظر في هذا الكتاب العزيز ، ورأى ما أودعه الله سبحانه فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان ، فقد أوتى فيه العجب العجاب ، والقول الفصل اللُّبَابَ ، والبلاغة الناصعة التى تحيّر الألباب ، وتغلَق دونها الأبواب ، فكان خطابه للعرب ، بلسانهم لتقوم به الحجة عليهم ، ومجاراته لهم في ميدان الفصاحة ليسبل رداء عجزهم عليهم ، ويثبت أنه ليس من خطابهم لديهم، فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم ، وكلّت عن النطق بمثله ألسنة بلغائهم ، وبرز في رونق الجمال والجلال ، في أعدل ميزان من المناسبة والاعتدال ؛ ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة ، والنفوس خشية ، وتستلذه الأسماع ، وتميل إليه بالحنين الطباع ، سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة ، عالمة بما يحتويه أو غير عالمة ، كافرة بما جاء به أو مؤمنة » (١) .

ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن العظيم ، والوقوف على ذلك ، إلاّ عن طريق معرفة لغة العرب ، ومعرفة ماكان عليه العرب الذين نزل القرآن في زمنهم من الفصاحة والبيان واللَّسَنِ ، ومن لم تكن له بذلك دراية ، ولا له عليه إقبال ، فشأنه شأن الأعجمى الذى يعرف الإعجاز في القرآن من عجز العرب الأقدمين عن الإتيان بمثله » (٢) .

« وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء : أحدها : حُسنُ

---

١ ـ أبوعبدالله محمد بن سعيد بن رسلان ؛ فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين ، ص١٣ ؛ نقلا عن الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم ، ص ٧ » .

٢ ـ المرجع السابق ، ص ١٣ .

تأليفه ، والتئام كلمه مع الإيجاز والبلاغة ، **وثانيها** : صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كَلَام أهل البلاغة من العرب نظماً ونثراً ، حتى حارت فيه عقولهم ، ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله ، مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك ، وتقريعه لهم على العجز عنه ، **وثالثها** : ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة ، والشرائع الدائرة ، مما كان لايعلم منه إلا النادر من أهل الكتاب ، **ورابعها** : الإخبار بما سيأتى من الكوائن التى وقع بعضها فى العصر النبوى وبعضها بعده .

ومن غير هذه الأربعة آيات وردت بتعجيز قوم فى قضايا أنهم لايفعلونها ، فعجزوا عنها مع توفر دواعيهم على تكذيبه ؛ كَتَمَنِّى اليهودِ الموتَ ، ومنها : الروعة التى تحصل لسامعه ، ومنها : أن قارئه لايملُّ من ترداده ، وسامعه لايمجّه ، ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذاذة ، ومنها : أنه آية باقية لاتعدم مابقيت الدنيا ، ومنها : جمعه لعلوم ومعارف لاتنقضى عجائبها ، ولا تنتهى فوائدها ... اهـ . مخلصا من كلام عياض وغيره » [1] .

معارضة الفواصل :

ذكر الرافعى فى « إعجاز القرآن » عددا من الذين عارضوا القرآن وتنبأوا وقالوا كلاما مسجوعا جريا على أسلوب القرآن فى فواصل الآيات ... قال [2]: على أن التاريخ لايخلو من أسماء قوم قد زعموا أنهم عارضوا القرآن ، فمنهم من ادّعى النبوّة وجعل ما يلقيه من ذلك قرآنا كيلا تكون صنعته بلا أداة ... على أنه لا أتباع له من غير قومه ، ولا

---

١ ـ فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٦٢٣/٨ .

٢ - الرافعى : إعجاز القرآن ، ص ١٣٥ .

يشايعه من قومه طائفة يستنفرون لأمره ويعطفون عليه جنبات الناس حتى يجمعوا له أخلاطاً وضروباً ، قد تبعوه وشمّروا فى ذلك حميةً وعصبيةً ، وحدباً من الطباع على الطباع [1] فهم فى غنى عن نبوته وقرآنه ، وإنما رأيهم الخطار بالأنفس والأموال على ماتنزعهم إليه الطبيعة ، مقاربة لمن قارب صاحبهم ، ومباعدة لمن باعد ، وعسى أن يرد ذلك مغنماً ، أو ينفلهم من غيرهم ، أو يجدى عليهم بالعزة والغلبة ، أو يكون لهم سبيل منه إلى التوثب إذا صادفوا وأصابوا مضطرباً ، إلى غير ذلك مما تزينه المطمعة ، ويغرّ به الغرور ، ويقصد إليه بالسبب الواهى وبالحادث الضئيل، وبكل طائفة من الرأى وبقية من الوهم وتستوى فيه الشمال واليمين ، وتتقدم فيه الرءوس والأرجل مبادرة لا يدرى أيهما حامل وأيهما محمول ...

ومنهم من تعاطى معارضة القرآن صناعة وظن أنه قادر عليها يضع لسانه منها حيث شاء ، وهؤلاء وأولئك لايتجاوزون فى كل أرض دخلها الإسلام من بلاد العرب والعجم إلى اليوم عدد ماتراه من عانة ضئيلة [2] تعرض لك من حمر الوحش فى جانب البر الواسع ثم

---

١ ـ وذلك أمر قد اطرد لكل المتنبئين من العرب ، وهم : مسيلمة ، والأسود العنسى ، وطليحة ، وسجاح ، وستذكر طرفاً من أخبارهم بعد ، وقد رووا أن طلحة النمرى جاء اليمامة فقال : أين مسيلمة؟ قالوا : مه ، رسول الله ! فقال : لا ، حتى أراه ! فلما جاءه قال : أنت مسيلمة؟ قال : نعم ، قال : من يأتيك؟ قال : رحمن ، قال : أفى نور أو فى ظلمة؟ قال : فى ظلمة . قال طلحة : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر؟

ولما توفى رسول الله ﷺ وكان طليحة قد تنبأ واستطار أمره فى بعض قبائل من العرب ، وكان بين غطفان وأسد حلف فى الجاهلية ، قام عيينة بن حصن فى غطفان فقال : إنى لمجدد الحلف الذى بيننا فى القديم ومتابع طليحة ، والله لأن نتبع نبياً من الحليفيين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش ! فتأمل .

٢ ـ العانة : الجماعة من الحمر الوحشية .

تغيب وتسفى الريح على آثارها وسنعدّ لك عداً ، لتصدر فى هذه الدعوى عن روية ، وتحكم فى تاريخ المعارضة عن بينة ، وتعلم القدر الذى بلغوه أو قيل أنهم بلغوه ، فإن حصر ذلك وبيانه على جهته يشبه أن يكون بعض ما يشهد به التاريخ من إعجاز القرآن ، وإن الحق ليجمع عليه الناس كافة ثم يكابر فيه الواحد والاثنان والنفر والرهط ، فتكون مكابرتهم فيه وجهاً من الوجوه التى يثبت بها ويغلب :

١ ـ فمن أولئك مسيلمة بن حبيب الكذاب ، تنبأ باليمامة فى بنى حنيفة على عهد رسول الله ﷺ بعد أن وفد عليه وأسلم ، كان يصانع كل انسان ويتألفه ، ولايبالى أن يطلع أحد منه على قبيح ، لأنه إنما يتخذ النبوّة سبباً إلى الملك ، حتى عرض على رسول الله ﷺ وآله وسلم أن يشركه فى الأمر أو يجعله له من بعده ، وكتب إليه فى سنة عشر للهجرة : « أما بعد : فإنى قد شوركت فى الأرض معك ، وإنما لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، لكن قريشا قوم يعتدون ... ! » [1] .

وقد زعم مسيلمة أن له قرآنا نزل عليه من السماء ويأتيه به ملك يسمى رحمن .. بيد أن قرآنه إنما كان فصولاً وجملاً ، بعضها مما يرسله، وبعضها مما يترسل به فى أمر إن عرض له ، وحادثة إن اتفقت ، ورأى إذا سئل فيه وكلها ضروب من الحماقة يعارض بها أوزان القرآن فى تراكيبه ، ويجنح فى أكثرها إلى سجع الكهان ، لأنه كان يحسب النبوة ضرباً من الكهانة ، فيسجع كما يسجعون ، وقد مضى العرب على أن يسمعوا للكهان ويطيعوا ، ووقر ذلك فى أنفسهم واستناموا إليه ، ولم

---

١ - الرافعى : إعجاز القرآن ، ص ١٣٦ .

يجدوا كلام الكهان إلا سجعاً [١] فكانت هذه بعض ما استدرجهم به مسيلمة وتأتى إلى أنفسهم منها [٢] .

ومن قرآنه الذى زعمه قوله ـ أخزاه الله ـ : والمُبذرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمنا . لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه والباغى فناوئوه ...

وقوله : والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذَق فما لكم لاتمجعون [٣] .

وقوله : الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل ...

وقال الجاحظ فى الحيوان عند القول فى الضفدع : ولا أدرى ما هيج مسيلمة على ذكرها ، ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيها فيما نزل عليه من قرآنه يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى ماتنقين ،

---

١ ـ لذلك سبب فلسفى يرجع إلى رغبة الكهان فى استهواء من يستمع إليهم .

٢ ـ وما خفى هذا الأمر عن بلغاء العرب وحكمائهم . وأنه استعانة على النفس الضعيفة بأقوى مافيها ، وأنه كسائر ما يأتيه الرجل . تمويه للصدق وتصنع للحمق فيه ، وقد قيل إن الأحنف بن قيس أتى مسيلمة مع عمه ، فلما خرجا من عنده قال له الأحنف : كيف رأيته ؟ قال : ليس بمتنبيء صادق ولا بكذاب حاذق ...!

٣ ـ المذق : مزج اللبن بالماء ، والمجع : اللبن يشرب على التمر ، أو تمر يعجن باللبن ، ولعمر الله ماتدرى أكان هذا القرآن يتزل على قلب مسيلمة أو على معدته . أو كان بين قوم جياع فتأثيره أن يسيل لعابهم ..!

نصفك فى الماء ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين [1] .

قال الرافعى :

وكل كلامه على هذا النمط واه سخيف لاينهض ولا يتماسك ، بل هو مضطرب النسج مبتذل المعنى مستهلك من جهتيه ، وما كان الرجل من السخف بحيث ترى ، ولا من الجهل بمعانى الكلام وسوء البصر بمواضعه ولكن لذلك سبباً نحن ذاكروه متى انتهى بنا الكلام إلى موضعه الذى هو أملك به .

٢ ـ ومنهم عَبهَلَةُ بن كعب الذى يقال له الأسود العنسى ، يلقب ذا الخمار لأنه كان يقول : يأتينى ذو خمار ، وكان رجلاً فصيحاً معروفا بالكهانة والسجع والخطابة والشعر والنسب ؛ وقد تنبأ على عهد النبى ﷺ وخرج باليمن ، ولا يذكرون له قرآنا غير أنه كان يزعم أن الوحى ينزل عليه ، وكان إذا ذهب مذهب التنبؤ أكب ثم رفع رأسه وقال : يقول لى كيت وكيت ، يعنى شيطانه ، وهذا الأسود كان جباراً ، وقتل قبل وفاة رسول الله ﷺ بيوم وليلة .

٣ ـ وطليحة بن خويلد الأسدى ، وكان من أشجع العرب ، يعدُّ بألف فارس ، قدم على النبى ﷺ فى وفد أسد بن خزيمة سنة تسع فأسلموا ثم لما رجعوا تنبأ طليحة ، وعظم أمره بعد أن توفى رسول الله ﷺ . وكان يزعم أن ذا النون يأتيه بالوحى ـ وقيل بل يزعمه جبريل ـ ولكنه لم يدع لنفسه قرآنا : لأن قومه من الفصحاء ، ولم يتابعوه إلا

---

١ - الرافعى : إعجاز القرآن ، ص١٣٧

عصبية وطلباً لأمر يحسبونه كائناً في العرب من غلبة بعضهم على جماعتهم ، وإنما كانت كلمات يزعم أنها أنزلت عليه ، ولم نظفر منها بغير هذه الكلمة ، رأيناها في معجم البلدان لياقوت ، وهي قوله : إن الله لايصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم شيئاً ، فاذكروا الله قياما [1] فإن الرغوة فوق الصريح [2] .

وقد بعث أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ خالد بن الوليد لقتاله وكان مع طليحة عيينة ابن حصن في سبعمائة من بني فزارة . فلما التقى الجمعان تزمّل طليحة في كساء له ينتظر بزعمه الوحي وطال ذلك منه ، وألح المسلمون على أصحابه بالسيف ، فقال عيينة : هل أتاك بعد؟ قال طليحة من تحت الكساء : لا والله ماجاء بعد ! فأعاد إليه مرتين ، كل ذلك يقول : لا . فقال عيينة : لقد تركك أحوج ماكنت إليه ! [3] .

فقال طليحة : قاتلوا عن أحسابكم ، فأما دين فلا دين [4] ! ثم

---

١ ـ يريد بذلك هيئة الصلاة من الركوع والسجود ، فكانت الصلاة في شرعه قياماً ، وما من متنبيء في العرب أن يجيء بشيء مبتدئاً إلا أن يتشبه بالنبي ﷺ ويزيد وينقص فيما جاء ، وتلك دلائل التزوير وعلاماته فترى لو كان هذا الأمر إنسانياً وذكاء وصنعة ، أفلم يكن في جزيرة العرب كلها من أقصاها إلى أقصاها رجل واحد يبلغ شيئاً من ذلك الذكاء وتلك الصنعة ، فيأتي بشيء أو يصنع شيئاً لو يكون هو على الأقل في هذا الأمر شيئاً مذكوراً .

٢ ـ الرغوة ما فوق اللبن ، والكلمة مثل جاء في العبارة حشواً .

٣ ـ راجع : الرافعي ؛ إعجاز القرآن ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

٤ ـ هذه رواية ابن الأثير في كتابه (أسد الغابة) وفي بعض المجاميع من كتب الأدب أن عيينة قال : تباً لك آخر الدهر ، ثم جذبه جذبة جاش منها ، وقال : قبح الله هذا ومن تبعوه ، فجلس طليحة ، فقال عيينة : ماقيل لك ؟ قال : إن لك رحى كرحاه ، وأمراً لاتنساه ! فقال عيينة : قد علم الله أن لك أمراً لاتنساه ، يابني فزارة هذا كذاب ، مابورك لنا وله فيما يطلب .

وفي تاريخ الطبري رواية أخرى تشبه هذه ، وفي معجم ياقوت أن عيينة قال له : هل جاءك ذو النون بشيء؟ قال : نعم . قد جاءني وقال لي : إن لك يوماً ستلقاه ، ليس لك أوله ولكن أخراه رحى كرحاه ، وحديثاً لاتنساه .. قلنا : فانظر أي هذيان تراه ...! (إعجاز القرآن للرافعي ص ١٣٩) .

انهزم ولحق بنواحي الشام . أسلم بعد ذلك ، وكان له في واقعة القادسية بلاء حسن .

٤ ـ وسجاح بنت الحارث بن سويد التميمية . وكانت في بني تغلب (وهم أخوالها) راسخة في النصرانية ، وقد علمت من علمهم وتنبأت فيهم بعد وفاة رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر ، فاستجاب لها بعضهم وترك التنصر ومالأها جماعة من رؤساء القبائل ، وكانت تقول لهم : إنما أنا امرأة من بني يربوع ، وإن كان مُلك فالملك ملككم . وقد خرجت بهم تريد غزو أبي بكر رضي الله عنه ، ومرت تقاتل بعض القبائل وتوادع بعضها ، وكان أمر مسيلمة الكذاب قد غَلُظَ واشتدت شوكة أهل اليمامة، فنهدت له بجمعها ؛ وخافها مسيلمة ، ثم اجتمعا وعرض عليها أن يتزوجها . قال : « ليأكل بقومه وقومها العرب » فأجابت ، وانصرفت إلى قومها ؛ فقالوا : ماعندك؟ قالت :كان على الحق فاتبعته فتزوجته (١) . ولم تدع قرآنا ، وإنما كانت تزعم أنه يوحى إليها بما تأمر وتسجع في ذلك سجعاً ، كقولها حين أرادت مسيلمة : عليكم باليمامة ، ودفُّوا دفيفَ الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة (٢) .

---

١ ـ روى الطبري أن قومها قالوا : فهل أصدقك شيئا؟ قالت : لا . قالوا : ارجعي إليه فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق ، فرجعت فقالت له : أصدقني صداقا . قال : من مؤذنك؟ قالت : شبث بن ربعي الرياحي . قال : عليَّ به ! فجاء ، وقال : ناد في أصحابك : إن مسيلمة بن حبيب رسول الله .. وقد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر . وذكر الكلبي أن مشيخة بني تميم حدثوه أن عامة بني تميم بالرمل لايصلونهما .

وفي رواية الأغاني أنه ـ أخزاه الله ـ وضع عنهم صلاة العصر وحدها ، وأن عامة بني تميم لايصلونها ويقولون : هذا حق لنا ومهر كريمة منا لانرده .. فإن صحت هذه الكلمة فليس أبلغ منها في الكشف عن معنى العصبية التي أومأنا إليها في هذا الفصل وقلنا إنها الأصل في مشايعة هؤلاء المتنبئين .

٢ ـ راجع الرافعي ؛ إعجاز القرآن ، ص ١٣٩

٥ ـ وشاعر الإسلام أبوالطيّب المتنبى المتوفى قتيلاً سنة ٣٥٤ فقد ادعى النبوّة فى حدثان أمره ، وكان ذلك فى بادية السمّاوة (بين الكوفة والشام) ، وتبعه خلق كثير من بنى كلب وغيرهم ، وكان يمخرق على الناس بأشياء وصف المعرى بعضها فى رسالة الغفران ، وقيل أنه تلا على البوادى كلاماً زعم أنه قرآن أنزل عليه يحكمون منه سوراً كثيرة ، قال على بن حامد :

نسخت واحدة منها فضاعت منى وبقى فى حفظى من أولها : والنجم السيّار ، والفلك الدوّار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفى أخطار ، إمض على سنتك ، واقف أثر من قبلك من المرسلين ؛ فإن الله قامعٌ بك زيغَ مَنْ ألْحَدَ فى دينه ، وضل عن سبيله » .

ولم يكن المتنبى كاتباً ، ولا بصيراً بأساليب الكتابة وصناعتها ووجوهها ، ولا هو عربى قُحٌ من فصحاء البادية ، وإن كان فى حفظ اللغة ما هو ؛ فليس يمنع سقوط ذلك الكلام الذى نسب إليه من أن تكون نسبته إليه صحيحة لأنه لو أراده فى معارضة القرآن ماجاء بأبلغ منه ؛ وما المتنبى بأفصح عربية من العنسى ولا مسيلمة ، وقد كان فى قوم أجلاف من أهل البادية ، اجتمعت لهم رخاوة الطباع ، واضطراب الألسنة ، فلا تعرفهم من صميم الفصحاء بطبيعة أرضهم ، ولا تعرفهم فى زمن الفصاحة الخالصة ، لأنهم فى القرن الرابع ، وإذا كانت حماقات مسيلمة قد جازت على أهل اليمامة والقرآن لم يزل غضّاً طرياً، ونور الوحى مشرق على الأرض بعد ، فكيف بالمتنبىء فى بادية السماوة وقومٍ من بنى كلب ! وهل عرف الناس نبياً بغير وحى ولا قرآن؟

٦ ـ وأبوالعلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ ، فقد زعم بعضهم أنه

عارض القرآن بكتاب سماه (الفصول والغايات ، فى مجاراة السور والآيات) وأنه قيل له : ما هذا إلا جيد ، غير أنه ليس عليه طلاوة القرآن ! فقال : حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون .

وقيل : إن من كتابه هذا قوله : « أقسم بخالق الخيل ، والريح الهابّة بلَيل ، بين الشرط مطلع سُهيل ، إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف الذيل ؛ تَعَدَّ مدارج السيل ؛ وطالع التوبة من قَبيل ، تنج وما إخالك بناج » [1] .

ولكن الرافعى استبعد أن يكون أبوالعلاء وقع منه ذلك ، والحقيقة أن أبا العلاء برىء من هذه التهمة الشنعاء فهى فرية عليه أراده بها عدو حاذق [2] .

وربما كانت طريقة التأليف وصوغ الفقرات والعبارات التى سلكها المعرى فى كتابه تدعو القارىء إلى الظن بأنه يعارض آيات القرآن الكريم، لأن الجمل لها نهايات مسجوعة على طريقة فواصل الآيات فهو يقول مثلاً فى الفقرة الثانية من أول الكتاب :

« أحْلفُ بسيف هبَّار [3] ، وفرس ضبَّار [4] ، يدأب فى طاعة

---

١ ـ الرافعى ؛ إعجاز القرآن ، ص ١٤٥ .

٢ ـ لأبى العلاء كتاب (الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ) بتحقيق محمود حسن الزناتى الذى قال فى مقدمة الكتاب : « ... أما القول بأنه قصد به مجاراة القرآن الكريم أو معارضته فذلك من قول حساده ... » والكتاب مطبوع فى مصر ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ .

٣ ـ هبَّار : قاطع .

٤ ـ الضبَّار : الذى إذا وثب وقعت يداه مجتمعتين

الجبار ، وبركة غيث مدرار ، ترك البسيطة حسنة الحبار [1] ، لقد خاب مضيِّعُ الليل والنهار ، أصلح قلبك بالأذكار ، صلاح النخلة بالإبار ، لو كشف ماتحت الأحجار ، فنظرت إلى الصديق المختار ، أكبرت وأنزل به كل الإكبار ، نحن من الزمن فى خبار [2] ، كم فى نفسك من اعتبار، ألا تسمع قديمة الأخبار ، أين ولد يعرب ونزار ، مابقى لهم من إصار ، لا وخالق النار ، مايُرَدّ الموت بالإباء » .

و « يحكى أن الكندى الفيلسوف قال له أصحابه : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناءً ، ثم أخبر عن حكمته فى سطرين ولايقدر أحد أن يأتى بهذا إلاّ فى مجلدات » [3] . يعنى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين أمنوا أوفوا بالعقود، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلاّ مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ، إن الله يحكم مايريد** ﴾ (المائدة ١) .

« ولقد كان أهل الفصاحة من العرب يفهمون القرآن ، ويعلمون مراميه فهم أهل اللغة وهم أدرى من غيرهم بتصاريف الكلام العربى ومعرفة معانيه.

---

١ ـ الحبار : الأثر والهيئة .

٢ـ خبار : أرض سهلة فيها جحر فأر ويرابيع توصف بصعوبة المشى فيها ومن كلامهم القديم : من سلك الخبار لم يأمن العثار . (انظر: «الفصول والغايات »، لأبى العلاء المعرى ، ص ١٢ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧) .

٣ - الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٣٣١/١ ، ٣٤٢/١

قال الأصمعي : قرأت يوما هذه الآية ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله ..** ﴾ وإلى جنبي أعرابي فقلت : والله غفور رحيم ، سهواً فقال الأعرابي : كلام مَنْ هذا؟ فقلت : كلام الله ، قال : ليس هذا بكلام الله ، أعِدْ .

فأعدتُ وتنبهت فقلت ﴿ **... والله عزيز حكيم** ﴾ فقال الأعرابي : نعم هذا كلام الله ، فقلت : أتقرأ القرآن؟ قال : لا ، قلت : فمن أين علمت أني أخطأت؟ قال الأعرابي : ياهذا ؛ عزَّ فحكَمَ فقَطَعَ ، ولو غَفَرَ ورَحِمَ لما قَطَعَ ؛ [(١)].

ومعجزة القرآن تكمن في أنه كلام ، والكلام سر الخلق لايعلمه إلا الله وحده الذي ﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ (مريم ٣٥)، فالله خلق الأكوان بكلمة ، وخلق آدم بكلمة وخلق عيسى بكلمة ، فالكلام أشرف مافي الوجود ، وقد اختار الله سبحانه وتعالى الكلام العربي لقرآنه فقال عز من قائل: ﴿ **وكذلك جعلناه قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير** ﴾ (الشورى آية ٧) .

القول بالصِّرْفَة

اغتر بقول الكفار ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا ..** ﴾ بعض جماعات المعتزلة التي ظهرت في القرن الثالث الهجري ، حين اتسعت دائرة البحوث في القرآن الكريم واحتدمت المعارك ، وكثرت الخلافات المذهبية، وعنف الجدل حول الآراء الكلامية ، وكان إعجاز القرآن أحد

---

١ - الصابوني ، صفوة التفاسير ، ج ٣٣١/١ ، ٣٤٢/١ .

الميادين الرحيبة التى تبارت فيها الفحول ، فزعم قوم من العقلانيين أن فصحاء العرب كانوا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولكن الله صرف قلوبهم عن ذلك .

وربما كان أول من قال بأن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن هو أبوموسى المردار المعتزلى وكان يقال له : راهب المعتزلة وهو الذى بالغ فى القول بخلق القرآن ، وهو تلميذ بشر بن المعتمر . فقد ورد فى ترجمة فرقة المردارية وهم أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى ، الملقب بالمردار (ت ٢٢٦) أنه انفرد بمسائل منها :

ـ قوله فى القرآن : إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحةً ونظما وبلاغة ـ وأن المردار هو الذى بالغ فى القول بخلق القرآن (١) .

وهناك أيضا بعض من زعم هذا الزعم من فرقة الأشعرية ،كما جاء فى ترجمة الشهرستانى لفرقة الأشعرية المنسوبة إلى أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (ت٣٢٤) ، المنتسب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، حيث قال الشهرستانى : « والقرآن عنده ـ أى الأشعرى ـ معجزة من حيث البلاغة والنظم والفصاحة إذ خُيِّر العرب بين السيف وبين المعارضة فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة . ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز فى القرآن من جهة صرف الدواعى وهو المنع من المعارضة، ومن جهة الإخبار عن الغيب . » (٢)

---

١ ـ الشهرستانى ، الملل والنحل ، بتحقيق الاستاذ / عبدالعزيز محمد الوكيل ، ج ٦٩/١ ، طبعة مؤسسة الحلبى ، القاهرة .

٢ ـ الشهرستانى ، الملل والنحل ، ج ١٠٣/١

أول من قال بالصَّرْفَة :

ويرى بعض المحْدثين أن أول من قال بالصرفة هو أبواسحاق إبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٣١) الرأس البارز فى المعتزلة وشيخها [١] واستشهد بقول الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل حيث يقول فيه :« ـ قوله ـ أي النظام ـ فى إعجاز القرآن إنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية ، ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما .. » [٢] .

ولاشك أن النظّام فى هذا الادعاء مخطىء ، لأن الله سبحانه وتعالى تحداهم بالاتيان بعشر سور منه ففشلوا ثم تحداهم بالإتيان بسورة واحدة ففشلوا ولم يستطيعوا ، ولو استطاعوا لما وهنوا فى مضاهاته ولو بالشبه ، والنظّام نفسه الذى جاء بهذه الفرية : أُسدَّت عليه منافذ القول ، وطمست أمامه سبل البلاغة فلم يقل قولاً ولم يذهب مذهباً ؟ وكيف ؟ وقد صال وجال ، وحاجّ وجادل بأسلوب عربى مبين رصين ، وكيف ؟ (وهو يرى ويسمع فى مجالس العلماء المتكلمين والشعراء فى عصره ـ من آيات البلاغة والبيان ما حفظ التاريخ الكثير منه بين أيدينا ، فأين كانت الصرفة وكيف لم تمسك بهذه الألسنة أن تصاول وتقاول ؟ » [٣] .

وكل من قال بالصرفة بهذا المعنى كان كأنه لم يدرك معنى المعجزة،

---

١ ـ عبدالكريم الخطيب ، الإعجاز فى دراسات السابقين ، ص ٣٦٤ .

٢ ـ الشهرستانى ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٥٧ ، طبعة مؤسسة الحلبى .

٣ ـ عبدالكريم الخطيب ، الإعجاز فى دراسات السابقين ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

ذلك لأن القرآن فى حد ذاته معجزة ، والمعجزة لا يتأتى لبشر مهما كان أن يأتى بمثلها أو ببعضها، وقد ضربنا لذلك مثلا عصا موسى هل كان من السحرة من يستطيع أن يحول العصا إلى حية تسعى ؟ ، لقد كان هذا السعى سعيا حقيقيا لأن الحية حية حقيقية لها روح ، فلما أيقن السحرة أن العصا تحولت فى الحقيقة حية غير حبالهم التى يزيفون للناس فيها سجدوا لله لأنهم أعلم الناس بالسحر ، وعصا موسى ليست بسحر لأن فيها الروح ويستحيل عليهم أنْ يجعلوا حبالهم مهما أوتوا من قوة السحر تسعى بروح لأن الروح من أمر الرب سبحانه وتعالى ، وهكذا القرآن فى إعجازه ، نحن نصف الإعجاز فقط ولاندرى كنهه ولايمكن لبشر أن يأتى بمثله أو ببعضه فيستحيل على أهل اللغة والفصاحة من العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن لأنه معجزة ربانية والمعجزة شىء خارق للعادة ومن هنا يسقط كلام من قال بأن العرب كان باستطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن ولكن الله صرف قلوبهم عن ذلك ،كما لايستطيع مدع أن يدعى أن سحرة موسى كان باستطاعتهم أن يأتوا بحية مثل حية موسى ولكن الله صرفهم عن ذلك ، وكذلك لايستطيع مدع أن يدعى أن علماء الطب على عهد عيسى كان باستطاعتهم أن يحيوا الموتى أو يخلقوا من الطين طيرا يطير فى السماء أن الله صرف قلوبهم عن ذلك [1].

وعلى فرض أننا جارينا هؤلاء الذين قالوا بالصرفة فى رأيهم بأن هناك صرفاً من الله لقلوب العرب الفصحاء عن الإتيان بمثل القرآن فإن هذا

---

١ ـ د . كمال الدين عبدالغنى المرسى ، مراعاة النظير فى كلام الله العلى القدير ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٧ ، ص ١٨١ .

فى حد ذاته معجزة من الله تعالى القادر على صرف قلوبهم وألسنتهم عن تقليد آيات القرآن وعن المجيء بمثلها ، فالصرف يبين لنا قدرة الله سبحانه وتعالى على صرف قلوب الفصحاء والبلغاء بمعنى إشعارهم بالعجز تجاه القرآن على أن يأتوا بمثله كعجز سحرة فرعون عن الإتيان بمعجزة موسى فى العصا وفى غيرها وعجز الأطباء على عهد عيسى عن إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لأن كل ذلك إنما يحدث بإذن الله ، وإذن الله لم يقع للفصحاء من العرب لمحاكاة القرآن والإتيان بمثله أو بمثل سورة منه ، فالصرف بهذا المعنى فى حد ذاته من الإعجاز ولذلك لايجوز لنا أن نصف القائلين بالصرف بأنهم كفار لأنهم اعتقدوا أن فصحاء العرب قادرون على الإتيان بمثل القرآن ولكن الله صرفهم. فكان المعنى أن العرب فصحاء بلغاء ولكنهم لايستطيعون بل يعجزون وفى العجز إظهار لمقدرة الله سبحانه وتعالى واعتراف بأن القدرة له وحده (١).

د كمال الدين عبدالغنى المرسى ، مراعاة النظير ، ص ١٨٢ .

القرآن .. المعجزة الخالدة *

المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد النبى تأييداً لدعوته ، ومعجزات موسى وعيسى قد انتهت بموتهما ، أما معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهى باقية بين أيدينا وهى القرآن ، تركه بأمر ربه ليكون شاهداً على الناس حتى قيام الساعة ، ولتكون أمته بالقرآن شاهدة على الأمم من بعده ، ونحن إذا تعرضنا لدراسة وجوه الإعجاز فى القرآن فإنما ندرس مظاهر المعجزة لا حقيقة الإعجاز لأن حقيقته يعلمها الله وحده .

إن القرآن في بديع رصفه ونظمه وأحكامه وانسجام كلامه كالوجود المنظم الذى تقع عليه أعيننا ونهتدى إليه بعقولنا فبديع إحكامه كبديع إحكام النظام الذى يشمل الوجود وهو محفوظ من لدن العلى الخبير كما السماء محفوظة من أن تقع على الأرض والتقديم والتأخير والترتيب العجيب بين ألفاظه إنما هو مثل التقديم والتأخير والترتيب العجيب الموجود بين المخلوقات ، فلا دخل فيه لبشر كما لادخل لبشر فى ترتيب نظام الكون ، لذلك تكفل الله بحفظه كما تكفل بحفظ القانون الذى يحكم خلق السموات والأرض ، وجعل الله فيه من الغيوب ما استأثر هو سبحانه بها كما جعل فى الوجود حوالينا من الغيوب ما استأثر هو بها فنحن نقرأ القرآن وبه من الآيات مالايستطيع بشر أن يفك رموزها مهما كان قدر علمه كالحروف المقطعة أوائل السور ، كذلك نحن نقرأ الوجود حوالينا لكنا نعجز عن الوقوف على حقيقة بعض

---

* د . كمال الدين عبدالغنى المرسى ، مراعاة النظير ، ص ١٣٦ ومابعدها .

الأشياء كالاتزان بين نسبة الاكسجين إلى بقية الغازات فى الهواء الجوى أو تصريف الرياح وما إلى ذلك من الأمور التى استأثر الله بعلمها .

وكما يتفق لنا أن الوجود الذى نحياه لايتفاوت ولا يتباين وأنه يسير بنظام دقيق لايتغير،كنظام الشمس التى تشرق فى الشرق وتغرب فى الغرب ، والقمر له منازل لايخطئها ولايتعداها ، ونظام الأجرام السماوية الدقيق الذى لايختلف ولايختل بحيث كل ذلك تطمئن إليه النفس البشرية وترتاح له وتعتاده ، نجد القرآن العظيم أيضا لايتفاوت فى درجته الفنية وأنه يسير بنظام دقيق لايختلف ولايختل ، ومراد القول أن الوجود إنما يمثل بكل مكوناته وحدة واحدة تقبلها النفس البشرية والعقل الإنسانى وترتاح إليه وترى فيها إعجازا وتسليما وأن كل شىء فى الوجود موضوع لحكم بالغة لايمكن لبشر أن يتدخل فيها أو يعدل عليها بحيث لم نسمع مثلا فى الوجود أحدا يقول لو أن سلسلة جبال الألب كانت مكان سلسلة جبال أطلس لكان أفضل أو أن السماء منظرها يكون أروع لو كانت مستطيلة .. بل إن هناك تسليما بروعة الوجود وبديع نظامه وعظيم إحكامه ودقيق صنعه ، كذلك فالقرآن العظيم يمثل وحدة واحدة وأن كل آية فيه موضوعة فى مكانها لحكمة بالغة لايمكن لبشر أن يتدخل فيها أو يعدل عليها وأن هذا الانسجام بين الآيات ومواضعها والألفاظ وترتيبها هذا الذى يصنع الروعة والإعجاز .

قلنا إن هناك تسليما من المرء بالنسبة للوجود حواليه وأن هناك إعجازا فى الصنعة التى هى أصلا صنعة الله عز وجل والتى مهما حاول الإنسان تقليدها فلن يصل إليها ، ولنضرب مثلا لذلك الدرة الطبيعية الموجودة فى الطبيعة والجوهرة التى يصنعها الإنسان فالأولى باهظة الثمن

لبهائها وأصالتها وجودتها وروعتها بحيث إن وضعت بين اللآلىء الصناعية تميزت عنها وفاقتها جمالا وزادتها بهاء فتهفو إليها النفوس وتستمتع بها الأنظار ، كذلك الكلمة من القرآن إذا وضعت بين سائر الكلام فإنها تتميز عنه بالرونق والفصاحة وتزيده بهاءً فتهفو إليها النفوس وتستمتع بها الأسماع ، وتتشوقها الآذان ، أليست هى الصنعة نفسها التى صنعت الدرة الطبيعية ونفس القدرة التى أعطتها تلك الهيئة وذلك الإعجاز ؟ .

كذلك الإعجاز فى القرآن الكريم فهو صنعة الخبير الذى أتقن كل شيء صنعه ، إن خبراء صناعة الجواهر حاولوا وأجهدوا أنفسهم كل الجهد لتقليد الدّرة الطبيعية ولكن لم يصلوا فى جوهرتهم الصناعية إلى ما تتمتع به الدّرة الطبيعية التى خلقها الله من صفات على الرغم من أنهم سلكوا فى سبيلهم غاية علومهم وعلموا كيف ينتهون إلى صناعة جوهرتهم وتفننوا فى ذلك غاية التفنن كما نراهم اليوم يضاهئون بالورد الصناعى الورود الطبيعية بحيث يخيل إلى الإنسان من غريب صناعتهم للوهلة الأولى أن ماصنعوه وردا طبيعيا ولكن ما أن يلمسه ويتفحصه يقف على حقيقة الأمر ، ويتبين له أن الأمر مجرد الشكل فقط فصناعتهم شكلية إذا قيست إلى الأشياء المخلوقة وهناك فرق عظيم بالطبع بين الصنعة الالهية والصنعة الشكلية الإنسانية ، ويظهر عجز الإنسان تماما عن أن يخلق مثل خلق الله أو يصنع كصنعه عز وجل ، وهنا يكمن معنى الإعجاز فالإعجاز هو سر الصنعة الإلهية ولن يصل إليه إنسان ، إذ هو من الأسرار الإلهية، والعاجز عن معرفة نفسه عاجز بالطبع عن معرفة غيره ، ويظهر لنا ذلك واضحا عندما نستعرض معاً معجزة موسى عليه

السلام حين دعا فرعون السحرة ليتحدى بهم نبى الله موسى عليه السلام وكان موقنا بأنهم هم الغالبون لأنه ظن أن ماجاء به موسى مجرد السحر، فلما ألقى السحرة عصيهم خيّل إلى موسى وإلى الأشهاد من سحرهم أنها تسعى فلما ألقى موسى عصاه التى تحولت إلى حية حقيقية لها روح وتلتهم حبالهم فى جوفها تبين للسحرة مدى كذبهم وضعف حجتهم، ولذلك خروا ساجدين اعترافا منهم بعدما تبين لهم الحق وأسلموا لموسى وآمنوا ولم يأبهوا لتهديدات فرعون ولكن غرور الفرعون دعاه إلى أن يلصق بهم التهم ويقول عن موسى بأنه كبيرهم الذى علمهم السحر لينقذ ماء وجهه أمام الأشهاد بعدما رأى الحية تلتهم عصيهم وحبالهم فلا تبقى منها شيئا ، وكان من الممكن للحية أن تلدغ فرعون نفسه أو تناله بسوء ولكن الله لم يأمر بذلك ، ثم إذا بموسى عليه السلام يمسك بها فتعود سيرتها الأولى .

إن الذى جعل السحرة يخرون سجدا هو الإعجاز ، إنه سر الصنعة الإلهية ، وهؤلاء قوم قد اشتهروا بالسحر فلما رأوا موسى يصل فيها إلى حد الإعجاز تبين لهم أنه ليس من عنده لأنه هو نفسه يجهل السحر ولم يمارسه من قبل ولم يدّع أحد منهم ذلك برغم افتراء فرعون على موسى، فأمية موسى بالسحر هى كأمية محمد صلى الله عليه وسلم بالكتاب الذى أنزل عليه فيظهر واضحا من هذا أن محمدا لم يأت به من عنده ، ولم يعلمه أحداً من الناس كما ادعى عليه قومه وألصقوا به التهم من أنه أى القرآن أساطير الأولين فهى تملى عليه بكرة وعشياً ؛ ولم يسبق لمحمد صلى الله عليه وسلم أن تعلم على عالم من علمائهم وإلاّ كانوا سارعوا بذكره ؛ ولما عجزوا تماماً عن الإتيان بمثل ما أوتى أو تحديه

جما يماثله رموه بالسحر ، تماماً كما رمى فرعون موسى بالسحر لأنه أيقن عجزه وعجز سحرته عن أن يأتوا بمثل ما أتى موسى .

وصحيح أن الماثل أمام الناس أن موسى عليه السلام يمسك بالعصا وهى تتحول إلى حية تسعى أو يشق بها البحر أو يضرب بها الحجر فيتفجر منه اثنتا عشرة عينا ولكنها هى العصا نفسها التى يهش بها على غنمه .. فهى فى الحقيقة عصا عادية ولكنْ شاء الله لها أن تكون معجزة له لأن المعجزة دليل النبوة لكى يصدق الناس أن هذا الرجل اختاره الله ليكون رسولا إلى قومه ويبلغهم رسالات ربه لاسيما إذا كان هؤلاء القوم متفوقين بصناعة معينة واشتهروا بها كصناعة السحر الذى اشتهر به قوم موسى عليه السلام أو الطب الذى اشتهر به قوم عيسى عليه السلام ، فقد جاء عيسى عليه السلام بما لايستطيعه قومه من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وفى هذا إعجاز أيما إعجاز لهم، وهذا الإعجاز الذى أتى به عيسى لا دخل له فيه لأنه يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص باذن الله وأبلغهم أن هذه الصنعة التى أتى لهم بها هى من عند الله ليؤمن به من يؤمن عن بينة ويكفر به من يكفر عن بينة ولكن عيسى وحده لايستطيع أن يأتى بمثل هذه الصفة من تلقاء نفسه وهو لايدعيها لنفسه. لهذا قال تعالى فى سورة المائدة : ﴿ ... **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ ... (١١٠ المائدة) وكما هى العادة فى شأن الأمم آمن معه من آمن واتهمه أهل العناد والكفر بأنه ساحر ... كما اتهم فرعون ومن معه

موسى من قبل بالسحر .. وكذلك أيضا نجد كفار قريش يقفون موقف الكفار والمعاندين من قوم موسى وقوم عيسى فيتهمون الرسول الكريم بالسحر لأنهم عجزوا أن يأتوا بمثل القرآن .. ثم نجد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يبلغهم أن القرآن هو وحى الله إليه ليبلغهم إياه ليؤمن به من يؤمن عن بينة وليكفر به من يكفر عن بينة ، ويبلغهم أيضا أن القرآن كلام الله لا دخل له فيه فهو يتلوه عليهم بإذن الله وليس من عنده ، ولذلك كان الرسول يصر على ألا يكتبوا عنه شيئا سوى القرآن حتى لايلتبس الأمر ويختلط حديثه بكلام الله بعد ذلك فكما كان يبلغ موسى قومه بأن ما أتى به هو من عند الله وكما أبلغ عيسى قومه بأن ما أتى به هو من عند الله فالرسول أيضا صلى الله عليه وسلم وعلى النبيين أجمعين بلغ الناس أن القرآن من عند الله أى أنه صنعة الله وماعلى الرسول إلا البلاغ . وما أن وصلنا إلى هذا الحد فإنه يكون قد تبين لنا أن الإعجاز هو سر الصنعة الإلهية نجده فى كل شىء حولنا فى الوجود فى المجرات وفى الهواء الجوى وفى البحار والأنهار وعموم الخلق.

ويتبين لنا هنا لطيفة أحب أن أذكرها وهى أن الله عز وجل تحدى الملائكة بعلم أودعه آدم ، حيث علمه الأسماء كلها وطلب إلى الملائكة أن يذكروا هذه الأسماء فعجزت الملائكة ، وذكرها لهم آدم عليه السلام فأمرهم الله بالسجود لآدم صاحب معجزة ذكر الأسماء التى طلبها الله عز وجل ، ولهذا سجدوا كلهم أجمعون ، إلا أن هناك من استكبر وأبى أن يسجد كما سجدت الملائكة وهو إبليس اللعين ، فادعى لنفسه الأفضلية على آدم لا من ناحية العلم فهو عاجز تماما عجز الملائكة عن ذكر الأسماء إنما من ناحية الخلق ، قال : ﴿ خلقتنى من نار وخلقته

من طين ﴾ أى أن عدم الإذعان لم يأت من ناحية المعجزة إنما جاء من ناحية العناد والحسد فقد حسد إبليس آدم عليه السلام لأن الله اصطفاه وأجرى على يديه المعجزة، فمثال الجماعة المؤمنة مثال الملائكة، ومثال الجماعة الكافرة مثال إبليس اللعين .

وإن نحن بحثنا قضية الكفر عند الكفار لوجدنا أن سبب الكفر عندهم إما الاستكبار وإما الحسد ، وهما صفتان يكرههما الرحمن .

ولطيفة أخرى هى أن معجزة آدم معجزة كلامية فقد علمه الله الأسماء كلها وهى شيء لم تتبله الملائكة ، ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا معجزة كلامية بيانية على خلاف كل المعجزات السابقة عليه .

وبعد ...... فإن أسرار القرآن لاتحد ، ووجوه إعجازه لاتعد ، ولايستطيع أن يلم بذلك أحد . فالقرآن معجزة لأنه من صنع الخالق ، وصنعة الخالق لايدرى كنهها بشر ولايحيط بها عقل لأنها تخرج عن حدود العقل ، إذ لايستطيع الإنسان مهما أوتى من القدرة والبيان أن يأتى بمثل هذا القرآن ، ولا الجان ، لأن الجن أقرت بذلك واعترفت به إذ قالوا : ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** ﴾ (سورة الجن ـ ٢) فإقرارهم بقولهم قرآنا عجبا ، يفيد بأنه يخرج عن طوقهم وأنهم لايستطيعون الإتيان بمثله . فهو معجزة لهم. وهؤلاء النفر من الجن الذين سمعو القرآن أدركوا الغاية منه وهى هدايته إلى الرشد فسارعوا إلى الإيمان به وأعلنوا الإذعان من فورهم إلى الوحدانية . وإن غاية ماترمى إليه المعجزة هى توحيد الخالق سبحانه وتعالى وتنزيهه عن النقص وعن الشريك .

﴿ خاتمـــة البحـــث ﴾

إلى الله تعالى أتوجه بأن يجعل هذا البحث خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به كل من أراد أن يتزود من بلاغة الأسلوب القرآني ، لاسيما أن من علوم القرآن معرفة إعجازه ، وفواصل الآى أحد وجوه هذا الإعجاز، وهى بعض أسراره ودقائقه ، ولقد حاولت أن أجمع فيه خلاصة ماتحصّل لدىّ من كلام الذين خاضوا فى الكلام فى فواصل الآيات القرآنية من السادة العلماء الأقدمين والمحدثين والمهتمين بهذا الشأن ، حتى تيسر لى تقديمه فى أربعة فصول :

الفصل الأول بعنوان : بين الفواصل والقوافى والأسجاع .

والفصل الثانى بعنوان : الإعجاز البلاغى للفواصل القرآنية .

والفصل الثالث بعنوان : الدرس البلاغى للفواصل القرآنية .

والفصل الرابع بعنوان : معارضة الفواصل والقول بالصرفة .

وفيما يلى أهم النتائج التى توصل إليها البحث :

١ ـ تقديم دراسة مستفيضة تناولت موضوع الفواصل التى هى رءوس الآيات القرآنية متضمنة أبرز ما أثر من الكلام المتناثر فى مصنفات عدد من العلماء السابقين واللاحقين والمهتمين بهذا المجال ، لتضيف إلى المكتبة الإسلامية كتابا يفى بهذا الموضوع ويغطى هذا الجانب من علوم القرآن .

٢ ـ أكد البحث على أن تسمية الفواصل بهذا الاسم مأخوذة من القرآن

نفسه لقوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (هود ١) وقوله عز من قائل: ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾ (فصلت ٣). فهذا الاسم تختص به رءوس الآيات القرآنية ، بينما يسمى غيره من الكلام الذى تتفق عباراته فى اللفظ الأخير بالتماثل والمزاوجة ، بالسجع ، كما تبين أن إطلاق اسم السجع على الفواصل جائز على سبيل المقاربة . وأنه لايجوز استعمال الفاصلة فى الشعر كما يمتنع استعمال القافية فى القرآن .

٣ ـ أظهر البحث أنه حتى القرن الثالث للهجرة كان التحرج واضحا من القول بالسجع فى القرآن ، وأن العلماء انقسموا بسبب ذلك إلى فريقين ، فريق يرى المنع وفريق يرى الجواز ، وتم حسم الخلاف بأن القول بالسجع فى القرآن تقرير للفاصلة ، والقول بالفاصلة ليس انكارا للسجع ، وأنه لامانع من إطلاق اسم السجع على ما فى القرآن من فواصل مادام لم يرد نص شرعى يمنع من ذلك .

٤ ـ أكد البحث على أن من خصائص النظم القرآنى فواصل الآيات التى تجمع إلى حسن النظم وعذوبة اللفظ حسنَ الدلالة وكثرةَ الفائدة ، حيث تأتى الفاصلة عاقدةً للمعانى ، فهى كالبراعم للنباتات والأكمام للزهر والبصمة للبنان . ومن هنا تكون الفواصل أحدَ وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

٥ ـ كشف البحث عن بعض أسرار الإعجاز فى الفواصل وأنها تكمن فى :

المزاوجة ، والتناسب ، والتكرير ، وإحكام الربط الفنى ، ورعاية

الفواصل ، وتحقيق التناغم والإيقاع .

٦ ـ تقـديم منهج علمى لدراسـة بلاغـة الفـواصل من خـلال ثلاثة مستويات :

المستوى الأول : هو المستوى اللغوى (المناسبة اللغوية للفاصلة) .

والمستوى الثانى : هو المستوى الدلالى (مراعاة الفواصل للمعانى) .

والمستوى الثالث : هو المستوى الصوتى (موسيقى الفواصل) .

٧ ـ دحض شبهة معارضة الفواصل وإظهار الفشل الذريع الذى منّى به كل من عارض القرآن وقال كلاما يحاكى فواصله ، كذلك تم دحض شبهة القول بالصرفة ، والرد على من قال بأن العرب كان باستطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن ولكن الله صرف قلوبهم عن ذلك ، ثم إظهار حقيقة أن القرآن معجزة « خالدة » أبد الدهر .

٨ ـ تبين للبحث أن الإمام جلال الدين السيوطى (ت ٩١١ هـ) هو أوعى من جمع الكلام فى شأن الفواصل وجعل له عنوانا مستقلا فى كتابه « الاتقان فى علوم القرآن » فى النوع التاسع والخمسين من أنواع علوم القرآن . وقد أفاد البحث منه كثيرا فى منهج دراسة الفواصل بلاغيا .

والله الموفـــق .

** تم بحمد الله **

فهرس المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم .

* ابن أبى الإصبع المصرى :

٢ - بديع القرآن ، تقديم وتحقيق حفنى محمد شرف - نشر : نهضة مصر .

* ابن حجر العسقلانى ، أحمد بن على :

٣ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقى وإخراج محب الدين الخطيب ومراجعة قصى محب الدين الخطيب ، دار الريّان للتراث بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ - ١٩٨٦ .

* ابن عاصم المفضل ، الضبّى :

٤ - الفاخر، بتحقيق عبد العليم الطحاوى ، ومحمد على النجار طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب .

* ابن عبد البر القرطبى :

٥ - بهجة المجالس وأنس المجالس ، وشحذ الذهن والهاجس ، بتحقيق محمد مرسى - دار الكاتب العربى .

* ابن هشام ، الأنصارى :

٦ - السيرة النبوية ، بتحقيق محمد بيومى - مكتبة الإيمان بالمنصورة ١٤١٦ - ١٩٩٥ .

* أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى :

٧ - إعجاز القرآن - تحقيق السيد أحمد صقر الطبعة الرابعة ، دار المعارف .

* أبو الحسن على بن عيسى الرمانى :
٨ - « النكت فى إعجاز القرآن » - ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن - طبعة دار المعارف بتحقيق د/ محمد زغلول سلام .
* أبو عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان .
٩ - فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين ، دار العلوم الإسلامية بالقاهرة ١٤٠٩ ، ١٩٨٩.
* أبو عبيد الهروى ، أحمد بن محمد بن محمد :
١٠ - كتاب الغريبين ؛ غريبى القرآن والحديث بتحقيق / محمد محمد الطناحى طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامى . القاهرة : ١٣٩٠-١٩٧٠ .
* أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى :
١١ - الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ ، بتحقيق/ محمود حسن زناتى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .
* أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى :
١٢ - كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، تحقيق / على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ط ٢ - ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربى .
* أحمد إبراهيم موسى :
١٣ - الصبغ البديعى فى اللغة العربية ، نشر دار الكتاب العربى بالقاهرة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩م .
* أحمد الحملاوى :
١٤ - زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع . نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى - الطبعة السابعة ١٣٩١ - ١٩٧١ .

* د/ بسيوني عبد الفتاح فيّود :
١٥ - علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧ م / ١٤٠٨ هـ .
* الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى :
١٦ - الجامع الصحيح ، راجعه محمد عثمان - الناشر محمد عبد المحسن الكتبي صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
* تمام حسان :
١٧ - البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية النص القرآني طبعة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .
* التهانـــوي :
١٨ - كشاف اصطلاحات الفنون ، بتحقيق لطفي عبد البديع وترجمة د. عبد النعيم حسنين - طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٧ .
* الحسن بن عثمان بن حسين المفتي :
١٩ - خلاصة المعاني - بتحقيق د/ عبد القادر حسين - طبعة دار الاعتصام ١٩٩٣م .
* د/ حفني محمد شرف :
٢٠ - إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق . إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . اللجنة العامة للقرآن والسنّة - الكتاب الرابع . ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
* زهران محمد جبر :
٢١ عروض الشعر الخليلي المكتبة الأزهرية للتراث ، بالقاهرة

* السيوطى ، عبد الرحمن جلال الدين :
٢٢ - الإتقان فى علوم القرآن ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بتحقيق" محمد أبو الفضل إبراهيم"، سنة ١٩٧٤ .
٢٣ - المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، بتحقيق محمد أحمد جاد المولى - على محمد البجاوى - محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار الفكر للطباعة والنشر .
* شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى :
٢٤ - نهاية الأرب فى فنون الأدب - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - وزارة الثقافة والإرشاد القومى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
* الشهرستانى :
٢٥ - الملل والنحل : طبعة مؤسسة الحلبى - القاهرة - بتحقيق الأستاذ/ عبد العزيز محمد الوكيل .
* شوقى ضيف :
٢٦ - العصر الجاهلى ، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٤ .
* الصابونى ، محمد على :
٢٧ - صفوة التفاسير ، مكتبة الإيمان - المنصورة ١٩٧٧ .
* ضياء الدين بن الأثير :
٢٨ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، بتعليق د/ أحمد الحوفى و د/ بدوى طبانة ، نشر نهضة مصر .
* طه حسين :
٢٩ - من حديث الشعر والنثر ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٥ .

* د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) :
٣٠ - الإعجاز البيانى للقرآن ، ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية . ط ٢ النشار : دار المعارف سنة ١٩٨٧ .
* د/ عبد الكريم الخطيب :
٣١ - الإعجاز فى دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها . دار الفكر العربى طبعة أولى سنة ١٩٧٤ .
* عبد المتعال الصعيدى :
٣٢ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، طبع مكتبة الآداب ، الطبعة السابعة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م.
* د/ فتحى أحمد عامر :
٣٣ - فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم - القاهرة ١٣٩٥هـ -١٩٧٥ م . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة القرآن والسنّة .
* القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى :
٣٤ - الجامع لأحكام القرآن - دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨-١٩٨٨ م.
* د/ كمال الدين عبد الغنى المرسى :
٣٥ - مراعاة النظير فى كلام الله العلىّ القدير - دراسة بلاغية فى إعجاز الأسلوب القرآنى ، دار المعرفة الجامعية للنشر والتوزيع بالاسكندرية طبعة ١٩٩٧ .
* محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكنى الشنقيطى :
٣٦ - « أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن » دار الفكر بيروت ١٤١٥-١٩٩٥ .

* محمد رجاء حنفى عبد المتجلى :
٣٧ - «الفواصل أحد مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم» ، مقال ، بمجلة الوعى الإسلامى ، العدد ٣٨٨ ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .
* أ/ محمد عبد العظيم الزرقانى :
٣٨ - مناهل العرفان فى علوم القرآن - طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه - القاهرة . .
* د/ محمود أحمد نحلة :
٣٩ - لغة القرآن الكريم فى جزء عم ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١م.
* مطفى صادق الرافعى :
٤٠ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . ط ١ دار المنار للطبع والنشر ، مكتبة فياض للطبع والنشر ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .
* يحيى بن حمزة العلوى :
٤١ - الطراز - مطبعة المقتطف - طبعة سنة ١٩١٤ .

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

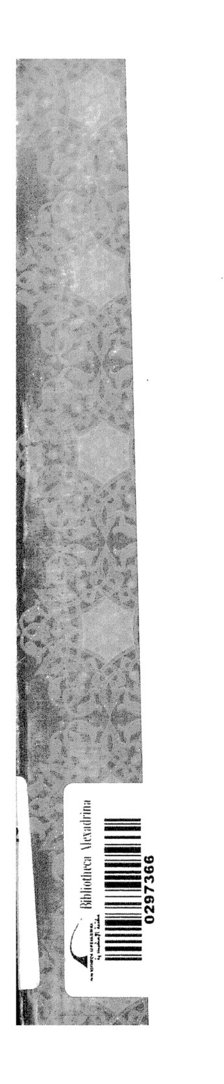
رقم الصفحة

* * *

﴿ تم بحمد الله تعالى ﴾

رقم الإيداع
٩٩/٧٤٩٧
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-19-8801-8

الرواد سنتر للطباعة
شارع العشرين ـ أمام سور شركة النحاس
الإسكندرية ـ تليفون : ٥٠٣٥١٩٩


Bibliotheca Alexandrina
02297366